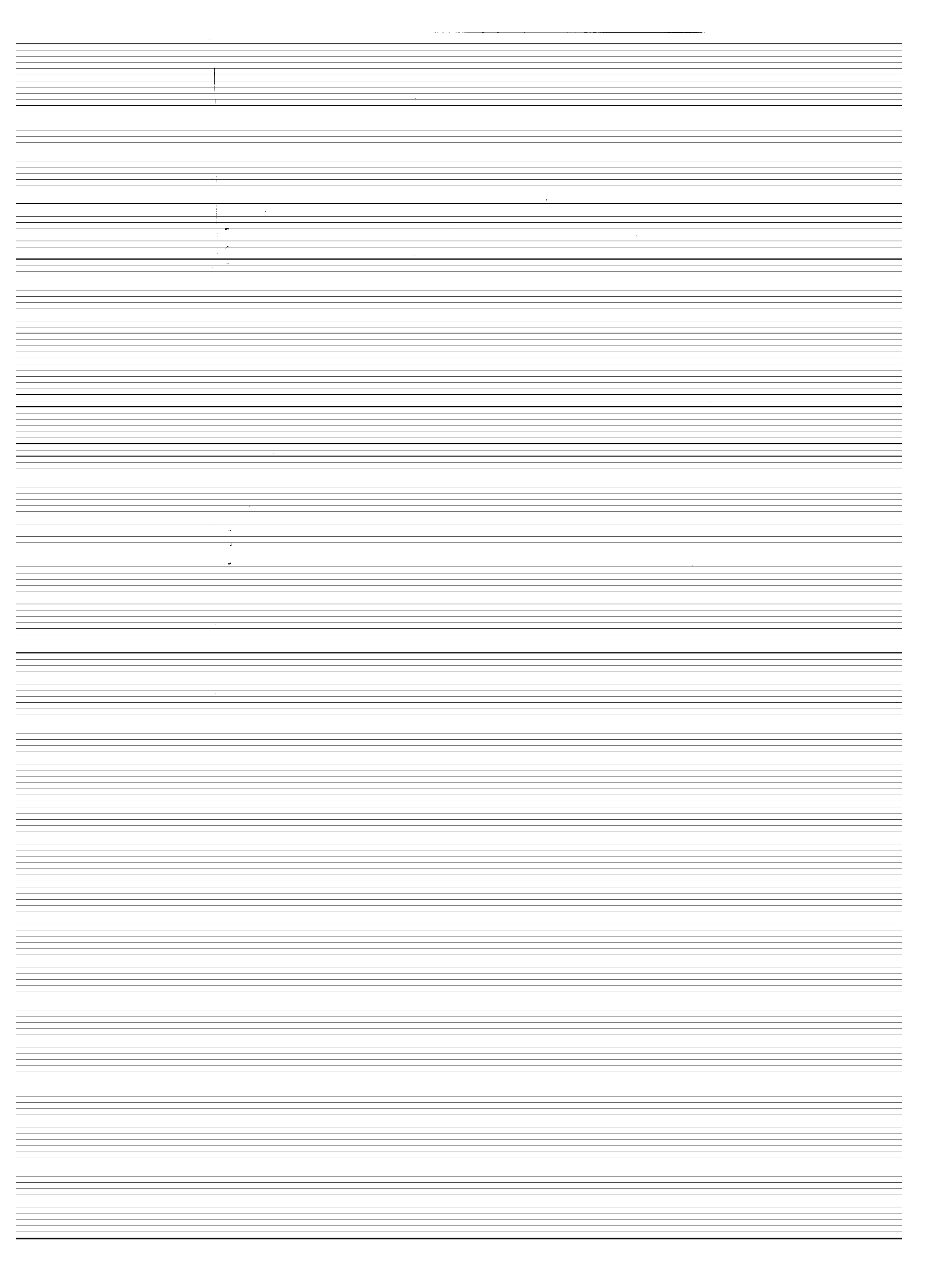


دراسات أخلاقية

إعداد

أ. د/ السعيد طه
أستاذ العقيدة والفلسفة

د/ نظير محمد عياد
مدرس العقيدة والفلسفة



﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله خلق فسوى ، وقدر فهدي ، سبحانه سوى النفوس فألهمها فجورها وتقواها .

فالفلاح لمن تزكى وزكى نفسه ، والخسران والخيبة لمن قادته إلى الهوى والدنايا ، فنزلت به من أحسن تقويم إلى أسفل سافلين .

والصلاة والسلام على من كانت بعثته ورسالته تمام مكارم الأخلاق " إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق " ، واصطفاه الله وأهله لذلك فكان كما وصفه الخالق : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ . [١]

رسالة الإسلام :

في بدايات الثلث الأخير من القرن السادس لميلاد المسيح عيسي عليه السلام كان ميلاد محمد ﷺ .

وبعد عقد من القرن السابع ؛ كانت بعثته ورسالته إلى العرب خاصة وإلى الناس كافة .

قال تعالى : ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ [٢]

وقال تعالى : ﴿ وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى

---

[١] سورة القلم (آية / ٤) .

[٢] سورة الشعراء (آية / ٢١٤) .

ومن حولنا ﴾ (١)

وقـال تعالـي : ﴿ قل يا أيها الناس إنـي رسول الله إليكم جميعا ﴾ (٢)

والإسـلام : عقـيدة وشريعة ، ومنهج للسلوك والتعامل ، نهـض بالعرب فشادوا حضارة ترقت بالبشرية وسعدت به ، وهو حجة الله للبشرية وعليها وهو باق محفوظ يؤتي ثماره عند التطبيق فـي كل زمان ومكان ، وهذا واقع تاريخي وتطبيقي علي مستوي بلاد الإسلام ودوله وتلك حقائق التاريخ وصحائفه .

ولا يـنكر ذلك إلا معاند أو مكابر ممن لم يؤمنوا به ، ولن يضـار الإسلام من هؤلاء المنكرين ، أو الحاقدين ، والمشوهين ، ولكن ما يضر الإسلام ألا يفهمه المسلمون ويطبقونه .

فقـد واجه الإسلام الشرك والفرقة ، في مكة وشبه الجزيرة العربـية . فاعتنقـت التوحـيد ، وتآلفت به القلوب . وتوحدت في السلوك . والجهـد والمسيرة الحضارية ، فقضت علي اليهود في يثرب وخيبر . وكذلك علي النصرانية في نجران والحبشة .

وتلاقت بالإسلام مع دولة الفرس عبدة النار فأطفأت نارها ، واعتنقت الإسلام .

---

(١) الشورى (آية ٧) .

(٢) الأعراف (آية ١٥٨) .

وكـــان اللقاء مع " إمبراطورية روما " وهي تعتنق نصرانية محـــرفة فـــيها من صنع الكنيسة أكثر مما جاء به عيسى ﷺ ، وما ورد علـــي لســـان الحوارييـــن ، فتخلصت دول وشعوب من هذا الـــتحريف ، وتسارعت بالإيمان ، بالإسلام ورسالته ، التي حفظت آياته ، وعقيدته ، وشريعته ، من التحريف والتبديل . كل ذلك قبل نهاية القرن السابع الميلادي ، والأول الهجري ، وفي مستهل خلافة عمر بن الخطاب ، دانت مصر بالإسلام وله ...

ومـــن مصـــر . وصـــل الإسلام عبر الشمال الإفريقي إلي أسبانيا ، وجنوب فرنسا ، كما وصل الإسلام عبر فارس وخراسان إلـــي جـــنوب وشرق آسيا والهند والصين ، وكان الفتح الإسلامي سواء في شبه الجزيرة العربية أو الشرق الأوسط أو إفريقيا أو شبه جزيرة أيبيريا (الأندلس) بأوربا ، أو الإمتداد في آسيا . وقد شمل معظـــم العـــالم وقاراته التي كانت معروفة آنذاك . وكان هذا الفتح عدلاً ومساواة للبشرية في القيمة الإنسانية ، كأسنان المشط فالبشر كلهم لآدم .

كمـــا كـــان فـــتحاً لكمـــال الإنسانية من منطق هذا العدل والتســـاوي ، والتســـامي بين جميع المسلمين الذين أمروا بالدعوة والبلاغ .

و هذا الفتح تمثل في :

١ – عقـيدة إيمانـية إلهية صحيحة محفوظة ، تتوافق مع الفطرة ويصدقها العقل .

٢ – مـنهج تشـريعي ، شامل وجامع للحياة وشئون البشر للدنيا والآخرة .

٣ – قـيم أخلاقية . تسمو بالإنسان والإنسانية إلي مكارم الأخلاق التي تهفو إليها الفطر السليمة ويحتاجها البشر .

٤ – وصـل للبشـرية وما فيها من خير وكمال وختام دعوات الأنبـياء والمرسـلين ، ولا غرابة في القول : إن الإنسانية بكل ما فيها من ترقي وتقدم في جوانب العقيدة والشريعة والأخلاق .

وبكـل مـا فيها من قيم إنسانية وأخلاقية ، وفكرية وعلمية باقية .

وستبقي علي مر الأيام للإسلام فيها النصيب الأوفي والعامل الأهـم ورسـالة الإسلام وتاريخها وعطاؤها ، أجل أن تخفـى أو تغيـب ، أو تحصـى ، والفضل يعرفه أهله وينكره من ليس مـن أهله . (١)

(١) انظر الإسلام والشيوعية والرأسمالية : د / السعيد طه (صـ ٢٠٦ – ٢٠٨) .

مصدر الأخلاق :

حيـــن تنطق كلمة " أخلاق " أو تسمع تتولد في النفس معاني لا تخفـــي عـــنـــد كـــل ســـامع ، وهي أيضا كلمة سهلة محبوبة ، ومطلوبة . .

فالإنسان عامة به ميل فطري إلي الأخلاق الحسنة ، كما أنه يرغـــب فـــي أن يتخلق بها ، وأن يوصف بها ، كما أن الإنسان لا يحـــب أن يوصف بأنـــه لا أخلاق لـــه ، ولكن لو بدأنا السؤال : مـــا هي الأخلاق ؟ ومن الذي يحدد حسنها وقبحها ؟ وما هي الغاية مـــن الأخلاق ؟ هل لها غاية ؟ أم أنها في ذاتها بين الحسن والقبح الذاتي ؟ وهل ما حسن خير ؟ وما قبح شر ؟ .

تلـــك الأســـئلة هـــي التي تحدد علم الأخلاق وموضوعه ، وغايته .

وبالإجابة علي تلك الأسئلة يكتمل ما يسمي بعلم الأخلاق ..

ورغـــم بســـاطة وحســـن الكلمة لحسن معناها ودلالة هـــذا المعني ؛ إلا أن الاتفاق علي معرفة الأخلاق وتحديدها خيرا أو شرا حســـنا أو قـــبحا ، نفعا أو ضـــرا ، أمرا ليس سهلا ، وليس محل اتفاق .

وليس ذلك راجع إلي صعوبة معرفة الخير وتحديده وفعله أو معرفة الرذيلة وتحديدها ، وهل كلاهما مطلق أو نسبي ، الخيرية والشرية ، ولكن الصعوبة تكمن في الإنسان ونظرته إلي ذاته وأهليته ومعرفته .

فمن يري أنه مخلوق وأنه خالقه أعلم به وبما يصلحه ويصلح غيره وأن هذا الخالق أعلم به وبما يضره ويضر غيره .

يؤمن بالوحي وبما جاء به معرفة وسلوكاً .

وأن ما طلب الشرع فعله هو الخير وما نهي عنه هو الشر والرذيلة ، فالأخلاق إذن مصدرها الوحي ، الذي ينظر إليه علي أنه سلطة خارجية عن الإنسان ، كما أن الدولة وما تشرعه من قوانين تأخذ نفس الوصف – أي الخارجي ، أما من يري أن الإنسان أهل لأن يعرف الخير وكذلك الشر أو ما هو نافع أو ضار ، فالمصدر الأخلاقي عنده هو العقل الإنساني أو الفكر الإنساني ، أي أن المصدر ذاتي في الإنسانية ، ولا يوجد اتفاق عند العلماء والباحثين علي تعريف الأخلاق وموضوعها وغايتها في المصدر الذاتي وذلك راجع إلي تعدد النظرات واختلافها باختلاف الناظرين وأبحاثهم وفلسفاتهم في المعرفة والسلوك .

أما من يجمع بين الأمرين ، فيؤمن بالمصدر الخارجي . الوحي وبأن الإنسان وما أودع فيه من فطرة وعقل في المنتهي لن

يختلف مع ما جاء به الوحي ، فيمثل النظرة الجامعة التي يلتئم بها علم الأخلاق ومثاليته .

وعلينا أن نصحب معنا هذه المصادر في بحثنا هذا والمعارف التي تتولد عنها ، وبها يتشكل ما يسمي علم الأخلاق في جانبيه النظري والعملي . [١]

---

(١) انظر المدخل إلي الفلسفة : أزفلد كوليه . ترجمة : د / أبو العلا عفيفي (صـ ٣٠٩ ـ ٣١١) .

الفصل الأول

﴿ التعريفات ﴾

علم الأخلاق :

العلم : إدراك الشيء بحقيقته ، وذلك ضربان :

أحدهما : إدراك ذات الشيء .

والثاني : الحكم علي الشيء بوجود شيء هو موجود له ، أو نفي شيء هو منفي عنه ، والعلم من وجه ضربان : (نظري ، وعملي) .

فالنظري : ما إذا علم فقد كمل ، مثل العلم بموجودات العالم .

والعملي : ما لا يتم إلا بأن يعمل ، كالعلم بالعبادات وغيرها .

والتعليم : تنبيه النفس لتصور المعاني ، فإذا تنبهت النفس لذلك فقد تعلمت ، وموضوع العلم هو الذي يحدد الإضافة فتقول علم الفقه وعلم النحو وعلم الأخلاق ، وهكذا . (١)

وكلمة أخلاق جمع خلق ، يقول الجرجاني :

---

(١) المفردات : الأصبهاني (صـ ٥١٣) ، وانظر التعريفات : الجرجاني (صـ ١٣٦) .

" الخلـــق عبارة عن هيئة للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلي فكر وروية .

فـــإن كانـــت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة عقلا وشرعاً بسهولة سميت الهيئة خلقاً حسناً .

وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر خلقاً سيئاً ، وهذا ما قاله الإمام الغزالي في الإحياء .

والقـــول بهيـــئة للـــنفس راسخة تعني الدوام والاستمرار ، وتخرج الأفعال القليلة غير الدائمة . (١)

وبعد ذلك ، يقول الغزالي :

فها هنا أربعة أمور :

أحدها : فعل الجميل أو القبيح .

والثاني : القدرة عليهما .

والثالث : المعرفة بهما .

والرابع : هيئة للنفس بها تميل إلي أحد الجانبين .

أمـــا الحسن وأما القبح فليس الخلق عبارة عن الفعل . فرُب شخص خلقه السماحة ، ولكنه لا يبذل إما لفقد المال أو لمانع ..

---

(١) التعريفات : (ص ٩٠) . والإحياء (جـ ٣ ص ٤٦) .

وكما أن حسن الصورة الظاهرة مطلقاً لا يتم بحسن العينين دون الأنف والخد ، بل لا بد من حسن الجميع ليتم حسن الظاهر ، فكذلــك في الباطن أربعة أركان لا بد من الحسن في جميعها حتى يتم حسن الخلق .

وهــي : (قوة العلم ، وقوة الغضب ، وقوة الشهوة ، وقوة العدل بين هذه القوي الثلاث) ...

فإذا استوت الأركان الأربعة واعتدلت وتناسبت حصل حسن الخلــق ، أما قوة العلم فحسنها وصالحها في أن تصير بحيث يسهل بهــا درك الفــرق بيــن الصدق والكذب في الأقوال ، وبين الحق والــباطل فــي المعتقدات ، وبين الجميل والقبيح في الأفعال ، فإذا أصــلحت هــذه القــوة حصل منها ثمرة الحكمة ، والحكمة رأس الأخــلاق الحسنة ، وهي التي قال الله فيها : ﴿ **ومن يؤتي الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا** ﴾

وأما قوة الغضب فحسنها في أن يصير انقباضها وانبساطها علي حد ما تقتضيه الحكمة وكذلك قوة الشهوة حسنها وصلاحها في أن تكون تحت إشارة الحكمة ، أعني إشارة العقل والشرع .

ويقــول الــتهانوي : عــن علم الأخلاق ويسميه أيضا بعلم السلوك . إنه معرفة النفس مما لها وما عليها من الوجدانيات .

أما موضوعه ، أخلاق النفس ، إذ يبحث فيه عن عوارضها الذاتية ويقسم الحكمة إلي قسمين : عملي ، ونظري .

والعملي : منها اختياري وهي تشتمل علي علم الأخلاق .

يقـول " الأعـيان الموجـودة ، أفعـال وأعمال ، وجودها بمقدرتنا واختيارنا أولاً .

فالعلم بأحوال الأول (أي الذي بقدرتنا واختيارنا) من حيث أنـه يؤدي إلي صلاح المعاش والمعاد يسمي حكمة عملية .. لأن غايتها ابتداء الأعمال التي لقدرتنا مدخل فيها ، فنسبت إلي الغاية ثم الحكمة العملية ثلاث أقسام .

لأنهـا إمـا علـم بمصـالح شخص بإفراده ويسمي تهذيب الأخـلاق ، وعلـم الأخـلاق والحكمة الخلقية ، وفائدتها ، تهذيب الأخـلاق ، أي تهذيـب الطبائع بأن تعلم الفضائل ، وكيفية انتقائها لـتزكو بهـا النفس ، وأن تعلم الرذائل وكيفية توقيها لتطهر عنها النفس .

وإمـا علـم بمصـالح جماعة متشاركة في المدنية ويسمي السياسة المدنية .

ثم يقول : واعلم أن فائدة الحكمة العملية عامة شاملة لجميع أقسام الحكمة العملية . وأن مبادئ هذه الثلاثة من جهة الشريعة ، وبها تتبين كمالات حدودها .

ومن الواضح من التعريف والموضوع والغاية ، أن كل ذلك منظور إليه من جهة النفس ومن جهة الفعل ومن جهة العائد والمصلحة والغاية للفرد والأسرة والجماعة بل والدنيا والآخرة ، وكل تلك بيانا والتزاما ومعرفة وسلوكًا في دائرة الشريعة أولا وقناعة العقل ثم ضبط السلوك وفقا لذلك . (١)

(١) كشاف اصطلاحات الفنون : التهانوي (جـ ١ ص ٥٤)

(العلاقة بين الدين والأخلاق)

لبيان الصلة بين الدين والأخلاق تتضح نظرتان :

نظـــرية تجريدية : تنظر إلي الأشياء كما يمكن أو كما يجب أن تكون .

ودراسة واقعية تاريخية ينظر إليها كما كانت بالفعل .

فمـــن الناحية التجريدية يمكننا بوجه من النظر أن نجعل من هذيـــن المعنييـــن حقيقتين متقاربتين ، وبوجه آخر أن نجعل منهما مفهومين متداخلين ، ذلك أننا إذا نظرنا إلي (الدين) من حيث هو معرفة (الحق) الأعلى وتوقيره وإلي (الخلق) من حيث هو قوة الـــنزوع إلي فعل (الخير) وضبط النفس عن الهوى ، كان أمامنا حقيقتان مستقلتان .

يمكـــن تصـــور إحداهمـــا بدون الأخرى ، فتختص أولاهما بالفضيلة النظرية ، وهي المعرفة للحق ، والأخرى الفضيلة العملية متمثلة في قوة النزوع وضبط النفس .

غـــير أنـــه لما كانت الفضيلة العملية يمكن أن تتناول حياة الإنسان في نفسه ، وفي مختلف علائقه مع الناس ، ومع الله . كان القانون الأخلاقي الكامل هو الذي يرسم طريق المعاملة الإلهية كما يرســـم طـــريق المعاملة الإنسانية ، وكذلك لما كانت الفكرة الدينية

ناضـــجة هي التي لا تجعل من الألوهية مبدأ تدبير فعال فحسب ، بـــل مصـــدر حكـــم وتشريع في الوقت نفسه ، كان القانون الديني كامل هو الذي لا يقف عند وصف الحقائق العليا للنظرية وإغراء النفس بحـــبها وتقديسها ؛ بل يمتد إلي وجوه النشاط المختلفة في الحـــياة العملـــية ، فيضع لها المنهاج السوي ، الذي يجب أن يسير عليه الفـــرد والجماعة ، وهكذا يصل القانون الديني ، إذ استكمل عناصره إلى بسط جناحيه علي علم الأخلاق كله .

بل على سائر القوانين المنظمة لعلاقات الأفراد والشعوب ، بحيـــث يجعلهـــا جزءا متمماً لحقيقته ويصبغ كل قواعدها بصبغة تقديسية ، فيصـــبح اتـــباع الفضيلة الفردية والاجتماعية نوعا من الطاعة لأوامر الدين وباباً من أبواب القربات والعبادات الإلهية .

فضـــلا عـــن كونـــه تحقيقا لمبدأ العدالة الإنسانية ، وتلبية لدواعي الفطرة السليمة ...

وخلاصـــة القـــول فـــي هـــذه الناحية التجريدية : أن الدين والأخـــلاق في أصلهما حقيقتان منفصلتان النزعة ، والموضوع ، ولكنهما يلتقيان في نهايتهما ، فينظر كل منهما إلي موضوع الآخر من وجهة نظره الخاصة كمثل شجرتين متجاورتين ، تمتد فروعهما وتتعانق أغصانهما ، حتى تصل إحداهما الأخرى .

أمـــا مـــن الوجهة الواقعية : فإننا لا نري الصلة بين الدين والأخـــلاق تـــبلغ دائماً هذا الحد من التساند والتعانق ، لا في مبدأ نشـــأتها في نفس الفرد ولا في دور تكونهما وتركزهما في قوانين وقواعد مقررة في المجتمع .

أمـــا فـــي الحياة الفردية فإن هذا الاتصال يبدوا واضحاً في عهد الطفولة والصبا .

فالتصور الأخلاقي أقدم وأرسخ في نفس الطفل من الشعور الديني ...

ولذلك نراه يبدأ في سن مبكرة جداً باستحسان بعض الأفعال واســـتنكار بعضها ، والاستحياء من بعض آخر ولا يشعر بالحاجة إلـــي تعليل ظواهر الكون . [١] وتقديس سر الوجود ، إلاَّ في دور ثان يكون فيه أنمى عقلاً وأهدأ بالاً ، وأشد تيقظاً ، وأدق ملاحظة .

وأمـــا فـــي المجتمع . فإن امتزاج القوانين الدينية والقوانين الأخلاقـــية نـــراه لا يجري على سنن واحدة في العصور والبيئات المختلفة .

فكثيراً ما ظهرت في التاريخ نظم أخلاقية لا تعرض لواجب الآلهـــة فقـــط ، ولا تستسقي تشريعها للفضائل الأخلاقية من وحي

---

(١) الدين . بحوث ممهدة : د / محمد عبد الله دراز (صـ ٥٦ ، ٥٧) .

الدين ، بل من قوانين العقل ، أو وحي الضمير أو سلطة المجتمع ، أو حساب المصالح والمنافع ، أو غير ذلك ، كما ثبتت في التاريخ مذاهب دينية لا تعني هذه العناية بالناحية العملية الاجتماعية بل كثيراً ما تجعل المتدين ينطوي علي نفسه متخذاً مثله الأعلى في العزلة والصمت والتأمل العميق .

نعم أن معرفة الحق وتعظمه لا يخلوان في غالب الأمر من مظهر يتمثلان فيه ، ولذلك تكاد لا تخلو حقيقة التدين من عنصر عملي يكون حلقة الاتصال بين الدين والأخلاق ، ويتحقق ذلك علي الأقل في الجانب الإلهي من الواجبات الذي يسمى عبادة .

لكن هذا المظهر قد يخفي بعض الأزمنة ، وتتضاءل صورته حتى يصير كلمة تعبر عن العجز والحيرة ، فابن هشام يروي لنا عن أحد الحنفاء ، وهو زيد بن عمرو بن نفيل ، وقد أسند ظهره إلي الكعبة وهو يقول : " اللهم إني لو كنت أعلم أي الوجوه أحب إليك عبدتك به ولكني لا أعلمه " ..

بقي علينا أن نتساءل عن المعني الذي يقصد إليه غالباً من كلمتي (الدين) و (الخلق) في محاوراتنا المصرية .

وهنا أيضاً نجد بين الكلمتين من المرونة ، في التداخل تارة والاستقلال تارة أخري ما يجعلهما دائماً في شبه مد وجزر ، ويجعل من العسير تحديد المراد من كلتيهما بصفة حاسمة ، إلا أنه

يلـــوح لـــنا أن هاتيـــن الكلمتين لا تزالان تخضعان في استعمالهما للقـــاعدة المعروفة في الكلمات العربية التي من أسرة واحدة مثل : الرأفة والرحمة ، والبر والتقوى ، والإيمان والإسلام ، وغير ذلك .. وهـــي أن هذه الكلمات التوائم كلما اجتمعت في العبارة افترقت فـــي المعـــنى ولكمـــا افترقت في العبارة اجتمعت . أو مالت إلي الاجتماع في المعني بقدر الإمكان ، فإذا كان فلان ذو دين وخلق ؛ وجـــب لكي تخلو العبارة من عيب التكرار واللغو أن تؤدي كل من الكلمتيـــن معنـــي مستقلاً ، منعزلاً عن الآخر . [١] انعزالاً كلياً ؛ بحيث يختص الدين بالجانب الإلهي ، والخلـــق بالجانب الإنساني ، فـــيكون معـــنى الديـــن : الإيمان أو التقوى الخاصة ؛ أي القيـــام بفـــرائض العـــبادة ، ويكون معني الخلق التحلي بالفضائل والآداب الاجتماعية .

أمـــا إذا اكتفينا بقولنا ؛ فلأن ذو دين ؛ وكان المفروض أن الديـــن الذي نشير إليه من الأديان الخلقية المعروفة فإن كلمة الدين هـــنا تتسع لمعنى أختها المطلوبة أيضاً ، وحينئذ يراد منها التقوى الشاملة ، أعني القيام بالفروض الإلهية والإنسانية معاً ...

وكذلـــك إذا اكتفينا بقولنا فلان ذو خلق ، وكان مفهومها أن الأخلاق المتواضع عليها جامعة للحقوق الإلهية والإنسانية .

---

(١) المصدر السابق (صـ ٥٧ ، ٥٨) .

ولا تفوتنا هنا الإشارة إلي أنه حتى في هذه الحالة التي تأخذ فـيها كلمـة الخلق أوسع معانيها لا تصبح تلك الكلمة مرادفة تماماً لكلمة الدين ..

لأن هذه ؛ لا تزال تمتاز بعنصر نظري جوهري ، لا يمكن سـقوطه ، ولو ذهب غيره من الأجزاء ، ذلك هو عنصر المعرفة بالإلـه والإيمـان بـه ، وهو عنصر لا يدخل في طبيعة مفهوم الأخلاق .

لأنهمـا دائمـاً ذات طابع عملي ، وما اعتمادها إن اعتمدت علي وازع الدين والإيمان إلا اعتماد علي دعامة ووسيلة ؛ لا علي جـزء مـتمم لحقيقـتها ، وفي وسعها أن تدعي قيامها علي باعث الوجدان أو غيره .

فـلا يكون بينها وبين الدين العملي إلا تشابه موضوعي مع اختلاف البواعث والأهداف وهذا ما يتمثل في الأخلاق في المعرفة الفلسفية التي سنعرض لها . [١]

---

[١] انظر الدين . بحوث ممهدة : د / محمد عبد الله دراز (صـ ٥٨) . ودستور الأخلاق في القرآن الكريم : د / دراز (صـ ٢٣ وما بعدها) .

ما هو كائن ، وما ينبغي أن يكون ..

بيـــن هذيـــن الأمريـــن اخــتلف الفلاسفة وعلماء الاجتماع الأخلاقي ، وعلي ضوء نظرة كل منهم اتجه البحث والتعريف لعلم الأخلاق :

١ - فمـــن يـــرى أن الأخلاق ، تعني في العادة مجموعة القواعد السلوكية التي تسلم بها جماعة من الناس ، في حقبة ما من الزمن .

وما علينا إلا معرفة العادات والسنن والطباع الخلقية السائدة بيـــن الجماعة ذهب إلي أن علم الأخلاق معرفة ما هو كائن ، دون تدخل في التغيير ، فهو علم وصفي أي يصف ما هو واقع .

وبالتالـــي فـــإن موضوع الأخلاق تحديد القواعد التي يسلك الإنسان بمقتضاها في الواقع ونفس الأمر .

٢ - أما من ينظرون إلي الأخلاق ، علي أنها ما ينبغي أن يكـــون علـــيه الفرد والجماعة وعليه فإن موضوع الأخلاق إلزامي علـــي الإنســـان أن يسلكه ويسير علي منواله ، وبالتالي فإن مهمة الأخلاق تنحصر في وضع المثل الأعلى ، وبيان الكمال الأخلاقي ، بـــل وتشريع القانون الخلقي ، وبيان المثل الأعلى والبحث لتحديد

وبيان الخير للسير عليه ، وبيان الشر لاجتنابه وتركه ، والنظر إلى الأخلاق علـى أنهـا ما يجب أن يكون وينبغي . كان هـو السائد الغالب عند الفلاسفة إلى عهد قريب .

إذ كـان يـنظر إلى الأخلاق على أنها مبحث فلسفي نظري يـتداولـه الفلاسفة ، ويخوض فيه علماء الأخلاق ، باعتباره علما معياريا – أي يضع المعايير ، ويبين قيمتها كقيم أخلاقية .

ولـذا أدخـل الفلاسـفة الأخـلاق ضمن مباحثهم الفلسفية فموضـوعها علـي قـدم المسـاواة مع المنطق ، وعلم الجمال . فموضوع المنطق هو الحق وعصمة الذهن عن الخطأ .

وموضـوع الأخـلاق : هو الخير وقيمته ، وكذلك الجمال وقيمـته ، وحجتهم في ذلك أن الأخلاق علم عقلي يدرس ما ينبغي أن يكـون ، وأن المشـكلة الأخلاقية بطبيعتها مشكلة نقدية تتصل بالأحكام وقيمها لا بالواقع وأحكامه .

ولمـا كانـت أحكام القيم لا تخلو من ذاتية ، فقد اصطبغت الأخلاق بصبغة فلسفية شخصية ، وأصبح هدف كل فيلسوف . أن يبنـي لنفسـه . مذهباً أخلاقياً ، جديداً يعارض به الأخلاق القائمة ويحاول أن يشرع لغيره من الناس .

وما لبث الفلاسفة أن نسوا أو تناسوا أنه توجد حقيقة خلقية ، وتوجـد مسـتقلة ، ولا تتوقف على أبحاثهم وأحكامهم ، وأن هذه

الحقـــيقة تتمثل بوضوح في القواعد التي يأخذ بها الناس أنفسهم في سلوكهم العادي دون نظر إلـــي ضرورة وجود الفلاسفة ، وبالتالي مذاهبهم . [١]

---

(١) انظر الأخلاق والمجتمع : د / زكريا إبراهيم (صـ ٢ ـ ٨) . ومقدمة في علم الأخلاق : د / محمود زقزوق (صـ ٧٠ ـ ٧٥) .

﴿ الخير وعلم الأخلاق ﴾

كـــان البحث في الخير ومعرفته ووضع مقياس له والتفريق بيـــنه وبيـــن الشـــر أهمـــية ملحوظة في التفكير البشري منذ أقدم العصور .

وأظهر المذاهب في تاريخ التفكير الأخلاقي ، في فهم الخير وتحديده اتجاهان متباينان .

١ - نظرية الحدسيين :

يـــرون أن الخـــيرية تخضع لقوانين عامة ومبادئ مطلقة لا يحدهـــا زمـــان ومكان ، وبالتالي فإن المستوى أو المقياس ، الذي تقـــاس به الخيرية به بين الأفعال الخيرية والأفعال الشريرة ، ثابت لا يتغـــير بتغير الظروف والأحوال ، فهو إذن لا نسبي ، ومع هذا الاتفـــاق بيـــن الحدســـين علي الخصائص العامة التي تحدد طبيعة الخيرية وقياسها .

إلا أنهم اختلفوا في تصور مستوي الخيرية ، هل هو خارج عـــن طبـــيعة العقل بهذا قال البعض وذهب غيرهم إلي أنه ملازم لطبيعة العقل :

١ – مستوي الخيرية خارج العقل :

يتمثل هذا الرأي فيمن قالوا إن مستوي الخيرية مبدأ ثابت لا يتغير وأنه يقوم خارج العقل البشري مستقلاً عنه ، ويتفرع هذا الاتجاه أيضاً إلي صورتين ...

الصورة الأولي :

تبدوا فيمن يرون أن مستوى الخيرية ؛ قائم في طبيعة الأفعال الإنسانية ذاتها لأن في طبيعة الخير ما يجعله خيراً . فالحسن ذاتي في الأشياء وليس في وسع أحد أن يجعله شراً ، وإلي ما يشبه هذا ذهب المعتزلة في الإسلام في قولهم : إن الحسن ما حسنه العقل أي أدرك العقل حسنه في الأشياء والأفعال .

أما الصورة الثانية للمذهب الحدسي :

يتمثل فيمن يرون أن المستوى الأخلاقي ؛ خارج عن طبيعة العقل البشري ، وأن الخيرية مردها إلي الله ، فالخير خير لأن الله أمر به ، فمقياس الأخلاقية لا يقوم في طبيعة الأفعال بل في إرادة الله .

وإلي مثل هذا ذهب أهل السنة ؛ فالحسن ما حسنه الشرع .

٢ – مستوي الخيرية قائم في طبيعة العقل :

مذهـــب الحدسين الذي يرد مقياس الخيرية إلي طبيعة العقل البشري يتفق مع الحدسين في أن المستوي الأخلاقي ثابت لا يتغير عام ومطلق ولكنه يخالفهم في رد هذا المستوى إلي طبيعة العقل ، وعـــدم اعتـــباره مستقلاً عنه ، وقد أرجع " عما نويل كانط " مرد المستوي الخلقي إلي إرادة الجنس البشري ؛ إذ يقول : اعمل بحيث أن تريد في نفس الوقت أن تكون قاعدة سلوكك عاماً للناس جميعاً .

وهـــذا القـــانون عـــنده لا يصدر عـــن عاطفة بالغاً ما بلغ ســـموها ، بل عن العقل العلمي وحده ، والخيرية مرهونة بالباعث باعتـــباره مجـــرد تقدير عقلـــي لمبدأ الواجب ، وليس لنتائج فيها حساب .

٢ – مذهب الغائيين :

وهـــو عكـــس الاتجاه الحدسي ، توجهوا إلي نتائج الأفعال وجعلوهـــا أســـاس كـــل حكم خلقي ، وردوا إليها لا إلي بواعث الأفعـــال ، كـــل قيمة خلقية ، فهم في هذا أشبه ما يكونون برجال القانون عند تقديرهم للمسئولية .

وقد تجلي الاتجاه الغائي في ثلاث صور نجملها فيما يأتي :

١ – مذهب اللذة :

جعـــل أتباعه اللذة غاية الأفعال الإنسانية ، ومقياس خيريتها وفـــي طلـــيعة هذا الاتجاه الأبيقورية قديماً ، وأتباع مذهب المنفعة العامة حديثاً .

٢ – مذهب الطاقة أو المذهب الحيوي :

ويعيـــب أتـــباعه مذهـــب اللذة لقصوره ووضوح تهافته إذ يجعلـــون اللذة الغاية التي تقاس بها خيرية . إشباع قوي الإنسان ، وتنميـــتها إلـــي أقصـــى حد ، وليست اللذة إلا عنصراً واحداً من عناصـــر هـــذا الإشباع ، فمذهب اللذة [١] معيب لأنه يستبعد كل مـــاعدا اللـــذة من قوى كالتماس العلم . والتضحية في سبيل مبدأ ، وحب المرء للناس ، وإبداع الفن وغير ذلك .

---

[١] انظر أسس الفلسفة : د / توفيق الطويل (صـ ٣١٤ – ٣١٧) . كتاب الأخلاق : د / أحمد أمين (صـ ٦٥ – ٧٠) .

ويتمثل هذا المذهب في صورتينن :

أ – مذهب الطاقة الغيري :

ينظر أتباعه إلي قوى الفرد التي يراد إشباعها وتنميتها عن طريق السلوك الخيري وبها يتميز الخير من الشر ، ينظرون إليها مـــن حيث دلالتها الاجتماعية ، فالإنسان إنما يعيش ويتحرك وسط مجتمع فمن واجبه أن يوجه نزعاته وقواه إلي خدمة الآخرين .

وهـــذا يمـــثل اتجـــاه جمهرة الأخلاقيين قديماً ، كأفلاطون وأرسطو . وحديثاً أيضاً ...

ب – مذهب الطاقة الأناني :

يـــرد أتباعه مستوي الخيرية إلى التعبير عن رغبات الفرد وحاجاته من غير اهتمام أو مع اهتمام قليل بالظروف الاجتماعية .

وقوام الأخلاقية عند دعاة هذا المذهب صراع من أجل البقاء بقـــاء الأصـــلح ، فالطبيعة تعمل عن طريق توكيد الذات ، وإقرار النزعات الفردية ، وكذلك ينبغي أن يكون تصرف الإنسان ، وهكذا ارتفـــع صـــوت الأنانية علي صوت الغيرية وغلبت الأثرة بواعث التضحية .

ويمثل هذا الاتجاه حديثا . فريدريك نيتشه .

٢- مذهب الزهد والتنسك :

هو نظرة سلبية في تصور الخيرية ، تحارب شهوات الجسم وأهــواء النفــس ونــبذ مطالب الحياة وحاجتها ، وتنكر العلاقات والالــتزامات الاجتماعــية وتطالب بإنكار الذات ورفض لذاتها ، وتمثلــت تلك النزعة في البوذية كعقيدة دينية ، وفي مدارس فلسفية كالرواقية وغيرها .

والواقــع أن فـــي الاتجاه الحدسي . والاتجاه الغائي السالفي الفكر بمختلف صورهما عناصر حق وعناصر ضلال .

فالاتجاه الحدسي يجعل مستوي الخيرية مستقلاً عن تجارب الحــياة ومطالــبها ، وهذا حسن من حيث المبدأ ، والاتجاه الغائي يربط بين الخيرية وشئون الحياة العملية ، فييسر البحث العلمي في الأخــلاق ، ولكن كلا الاتجاهين علي حدة غير مقبول فالأول يترك فكرة الخيرية بعيدةعن الأذهان جافة مجردة في التصور .

بينما يسلب الاتجاه الغائي الأخلاقية سلطتها المطلقة .[١]

مــن خــلال مــا سبق تبدوا الصعوبة واضحة تماما في أن نعــرف علم الأخلاق تعريفا كما يقال جامعاً مانعاً ، أو يحدد تحديداً قاطعاً . في كل العصور ولدى جميع الفلاسفة والباحثين .

---

[١] المصدر السابق (صـ ٣١٩ – ٣٢١) .

ولكننا سنعرض لأشهر التعريفات وآراء الأخلاقيين فيها :

أ – الأخـــلاق : علـــم العادات . وأصحاب هذا التعريف قد تأثروا بالأصل الإغريقي للكلمة (ايتوس) ومعناها (العادة) .

إلا أن هـــذا التعريف قاصر علي دائرة علم الأخلاق التي لا تقتصـــر علـــي أعمال الإنسانية الإرادية التي تتكون عنها العادات والتقاليد وإنما بجانب ذلك تتناول التوجيه السديد المقنع لعمل الخير واجتناب الشر والحض علي التمسك بصالح التقاليد والعادات بمقدار اجتناب ما هو فاسد منها .

وفـــوق هذا يدخل في نطاق دائرة علم الأخلاق تقييم أعمال الإنســـان والحكم عليها بأنها خير يجب أن يمارس ، أو شر ينبغي الابتعاد عنه .

ب – الأخلاق : علم الإنسان . وهـــو تعـــريف الفرنسي (باســـكال) ، وإذا كـــان التعريف بأنه علم العادات قد أخذ عليه أنه أضيق من دائرة اختصاص العلم ، فإن التعريف بأنه علم الإنسان ، وســـع من هذه الدائرة . لأنه يتناول كل ما هو متعلق بالإنسان من علوم ومعارف تدور حول الإنسان وتتخذه موضوعا لها .

جـــ – الأخلاق : علـــم الخير والشر . وهو تعريف لا يفي بموضوعات هذا العلم لأنه لا يقف عند حد الكشف عن حقيقة كل

مـــن الخير والشر ، وإنما يحدد كذلك الواجب والواجبات ويحض عليها .

د – **الأخـــلاق** : دراســـة الواجب والواجبات . وهو تعريف قاصـــر . لأنـــه يهمل جانباً من جوانب العلم . وهو تقييم الأعمال الإنسانية علي ضوء تحديده لقيمة كل من الخير والشر .

هــــ – الأخـــلاق : العلم بالفضائل وكيفية اقتنائها : ليتحلى الإنسان بها والرذائل وكيفية توقيها ليتخلى الإنسان عنها .

وهـــذا تعـــريف " البستاني " إلا أنه قاصر عن كيفية تحلي الإنسان بالفضائل وتخليه عن الرذائل . وبيان أمثل الطرق لذلك .

وقد عقب الدكتور محمد بيصار علي هذه التعريفات بالقول :

إلا أنـــه من الممكن مع هذا وضع تعريف عام يصور الإطار العام لذلـــك العلـــم ، ويحـــدد القدر المشترك بين مختلف التعريفات عند العلماء والباحثين . وهو : أن علم الأخلاق (العلم بالفضائل وكيفية اقتنائها ليتحلي بها الإنسان . والعلم بالرذائل . وكيفية توقيها ليتخلى عـــنها الإنسان . والإلمام بقواعد السلوك الإنساني وبالمقياس الذي تقـــاس به أعمال الإنسان الإرادية . فيحكم عليها بأنها خير أو شر مع تحديد الجزاء لكل منهما . [١]

---

[١] انظر العقيدة والأخلاق : د / محمد بيصار (صـ ٢٠٣ ـ ٢٠٤) ، والأخلاق بين الفلسفة وحكماء الإسلام : د / مصطفي حلمي (صـ ٥ ـ ١٦) ، وتهذيب الأخلاق ابن مسكويه (صـ ٢ ـ ٢٥) .

الغاية من علم الأخلاق :

الغاية التي يتوخاها علم الأخلاق من كل ذلك إنما هي تحقيق السـعادة النفسية والطمأنينة القلبية للإنسان ، وتهيئة الحياة الآمنة . والعيشة الراضية له في كل من حياته العاجلة والآجلة .

موضوع علم الأخلاق :

يـتحدد الموضـوع علـي ضوء ذلك بأنه . أعمال الإنسان الإرادية الصادرة عن فكر وروية . (١) ويلحق بالأعمال الإرادية الأعمال التي اعتديت حتى صار صاحبها يأتيها من غير إرادة مثل التدخيـن وغـيره ، فـلا يعذر صاحبها ، لأن الاعتياد نتيجة عمل إرادي .

الأخلاق بين الإرادة وانعدامها :

ما هي الإرادة : تعرف الإرادة بأنها صفة توجب للحي حالاً يقع منه الفعل علي وجه دون وجه ، وتعرف أيضاً أنها ميل يعقب اعتقاد النفع . (٢)

فأفعال الإنسان غالباً وراءها إرادة بل إن العاقل دوماً وراء كل أقواله وأفعاله نية إرادية ، وهذه الأفعال الإرادية هي موضوع الحكم الأخلاقي فما هي الأفعال الإرادية وغير الإرادية .

---

(١) انظر العقيدة والأخلاق : د / محمد بيصار (صـ ٢٠٣ – ٢٠٤) .

(٢) انظر التعريفات : الجرجاني (صـ ١٠) .

١ – الأعمال الإرادية :

هـــي الأعمـــال التـــي تصدر عن الإنسان بعد تفكير وروية وتدبـــير لنتائجها المرتقبة ، وتكوين إرادة لعملها . كمن يريد السفر فيعدله ، ومن يريد النجاح فيأخذ بأسبابه . ومن يريد الزواج فيعمل لـــه . ومـــن يريد قتل عـــدو أو إنسان ، ومن يريد إقامة مشروع خـــيري . كل ذلك أعمال إرادية توصف بالأخلاقية ، وتدخل تحت الحكم الأخلاقي خيراً أو شراً ، نفعاً أو ضراً .

٢ – الأعمال غير الإرادية :

ويتمـــثل فـــي الأعمال التي لا دخل للإرادة في حدوثها ولا نـــتائجها ولا يمكن التحكم فيها كعملية التنفس والهضم ونبض القلب وتلك أعمال كأنها آلية تحدث في اليقظة والنوم .

كما توجد أعمال تسمي انعكاسية أو ردود أفعال . كإغماض العين عند الوضوء وسرعة إبعاد اليد عن النار أو عند الوخز وغير ذلك ..

وهذه الأعمال كسابقتها لا كسب للإنسان فيها ولا إرادة ...

وهـــذه الأعمال ليست في شئ من موضوع علم الأخلاق ، لأنه لا حكم خلقي إلا حيث يكون القصد والاتجاه والإرادة .

٣ - شبه إرادة :

يأتي الإنسان أحياناً أعمالاً إذا نظرنا إليها من زاوية حسبناها أعمـــالاً إراديـــــة وإذا نظرنا إليها من زاوية أخرى ألفيناها غير إرادية .

فمـــن الـــناس مـــن يأتي أعمالاً وهو نائم فيقوم من فراشه ويمشـــي وقـــد يصدم شيئاً بل قد يقتل شخصاً أو يحرق منزلاً وقد يســـتيقظ بعد ذلك أو يعود ثانية إلي فراشه ويستغرق في النوم دون أن يدري أو يدرك ما حدث .

ومـــن الـــناس مـــن يحدث له تشنج أو نوبة عصبية ، وقد يضرب الآخرين أو يقتلهم وهو غير مدرك لما يفعل .

هـــذه الأعمـــال وأمـــثالها إذا نظرنا إليها علي أنها أحدثت أضـــرارا بالآخريـــن ، قـــد ينظر إليها علي أنها شر ، ولكن عند معرفتـــنا وإدراكـــنا أن مـــــن قام بها عملها دون إدراك ، وإرادة وقصـــد ، ولم يكن في يقظة علينا أن نلحقها بالأعمال غير الإرادية ولكـــن تبقـــي المسئولية في دائرة الشخص الذي يأتي هذه الأفعال وتتكرر منه ويعلمها من الآخرين بعد ذلك عليه ما أمكنه أن يحتاط للأمـــر بـــأي صورة يقدر عليها ، كإغلاق باب الحجرة عليه عند نومه أو مصاحبة إنسان له يمنعه عند قيامه بمثل ذلك .

فنحن نتحمل مسئولية خلقية عن عدم الاحتياط للأوقات التي تكون فيها غير مسئولين .

فائدة علم الأخلاق :

مـــن الحقـــائق المسلم بها أن العلم بعلم من العلوم مفيد في الميادـيــن التي يشتمل عليها هذا العلم . كالحساب والهندسة والطب وغـــير ذلـــك مـــن العلـــوم . فعلم الطب مثلاً في ناحيتيه الوقائية والعلاجـــية ، يـــدرس ويبين لنا كيف نتقي المرض ، وأيضاً كيف نشفي منه عند الإصابة .

ولكـــن هل علم الطب مع هذا كفيل بالقضاء علي الأمراض والوقاية بذاته أو أن الإنسان له العامل الهام في تحقيق الغرض من الطب .

إن الجســـم أولاً . القـــادر علي المقاومة بذاته أو بمساعدة العلاج هو مقياس فلاح الطب والعلاج .

ثانـــيا : علـــي الإنسان الاستجابة باختياره ورضاه والالتزام بالعلاج والقواعد الصحية .

وإذا أردنـــا أن نطبق هذا علي علم الأخلاق ، وقد ذكرنا أن علـــم الأخـــلاق يبين الفضائل . وكذا الرذائل لنأتى الأولى ونترك الثانية .

وبالتالـــي : علينا دراسة الكيان الإنساني وبيان تلك الطبيعة التـــي تشـــكل الإنســـان من غرائز وميول ونوازع ومعرفة كيفية توجيهها إلي الخير وتنفيرها من الشر .

ثانـــيا : الإيمان بأهمية الأخلاق ورسالتها للإنسان والالتزام بتلك المعارف الخلقية عن يقين وإيمان [١]

ومـــن الواضح أن علم الأخلاق علي هذا له جانبين : جانب معرفـــي نظري وجانب عملي تطبيقي ، ومجموع الاثنين هو الذي يحقق الغاية والهدف ، والفائدة من علم الأخلاق .

وإلـــي الجانب النظري بعد أن عرضنا للإرادة ومكانها من المســـئولية الأخلاقية والخير والشر واختلاف النظرات والمقاييس فيهما . نعرض للقوي والنوازع الإنسانية ...

---

(١) مقدمـة فـي علـم الأخـلاق : د / محمـود زقـزوق (صـ ٣٢ – ٤٢) ، والعقـيدة الإسلامية والأخلاق : د / محي الدين الصافي وآخرين (جـ ٢ صـ ١٧٧ – ١٨٠) .

الفصل الثاني

﴿ القسم النظري ﴾

عرضـــنا للمســـئولية الخلقية وارتباطها بالفعل الإرادي ، وشبه الإرادي .

والمســـئولية في معناها العام والمجمل ، حالة للمرء يكون فيها صالحاً للمؤاخذة علي أعماله ملزماً بتبعاتها المختلفة .

وهذه المسئولية متنوعة ...

أ – المســـئولية الدينـــية : وهـــــي التزام المرء بأوامر الدين ونواهـــيه ، وقـــبولـــه لما يترتب علي مخالفتها من جزاءات محدودة وعقوبات مقررة .

ب – المسئولية الاجتماعية : وهي التزام المرء بقوانين المجتمع الذي يعيش فيه وبتقاليده ونظمه . القانونية والأدبية . وتقبله لما ينتج عن مخالفته لها من عقوبات شرعها المجتمع للخارجين علي تلك القوانين أو الآداب والتقاليد .

جـ – المسئولية الأخلاقية : وهي حالة يكون فيها الإنسان قادراً أمام نفسه علي تحمل تبعات أعماله وآثارها .

وهذا النوع الأخير من المسئولية هو موضوع علم الأخلاق .

وإذا كان مصدر النوع الأول من المسئولية هو الدين ، وما فيه مـــن مـــبادئ وأحكـــام ، ومصدر النوع الثاني ، المجتمع وما سن من

قوانين وأحكام فإن مصدر النوع الثالث من المسئولية الأخلاقية ما أودع فـــي الإنســـان من قوة نظرية يطلق عليها ، الضمير الذي يكون له من السلطان ما يجعل منه مصدراً للمسئولية ورقيبا علي الفعل ، بل ومثيبا علـــيه ، إن كان خيراً بالشعور بالرضا والسعادة أو معاقباً عليه إن كان شراباً بالتقبيح والتأنيب .

فمـــا هـــو هـــذا الضـــمير الذي يمثل المشرع والمحاسب والمجازي .

١ – الضمير :

الضمير كلمة متعددة الدلالة غير محددة المعني وفيها من الوسع أكـــثر ممـــا فيها من الضيق والدقة ، هل هي صوت النفس ؟ أو النفس اللوامة ؟

هلـــي هـــي هـــتاف العقل ؟ أو حفيف الوجدان ؟ هل هي البر ودواعـــي الطمأنيـــنة وضدها الإثم وما حاك في الصدر ؟ هي كل ذلك وأكثر ...

تتوارد الخواطر والدوافع علي صفحة الذات الإنسانية . النفس . الوجدان . العقل . الروح . الرغبة . الميل . الدوافع . الغرائز . ويحار فـــيهـــا الإنسان أولاً ثم يرجح ويختار ويفعل . وبعد ذلك ماذا ؟ أخيّراً فعل ؟ أم شرّاً أتى ؟ ..

إنـــه يشعر ويحس بالسعادة والطمأنينة والرضا يسري في كيانه كلـــه إنه فعل خيراً أنه فعل حسناً ، إنه ساعد ، إنه أعان . إنه صدق ،

إنه قال الحق . إنه كدّ وتعب . إنه أفلح ونجح . كل تلك المشاعر تسمي الضمير في ناحية الخير ...

إنـــه يشـــعر بالألم . الوخز ، وتأنيب الضمير . بعدم الرضا . بالـــندم . يعصر قلبه . ويزلزل كيانه . كل هذا فعل الضمير وصوته ، لأنـــه أتـــي شراً أو منكراً من القول وزوراً ، إنه أضاع وقته ، أضاع جهـده ، جبـن وبخـل . ضـعف واستكان . قبل المهانة . لم يسرع بالمســاعدة . كـل تلك الأعمال يجد الإنسان صدى لها في نفسه ، هذا الصدى هو ما يطلق عليه الضمير .

ولو أردنا البسط والتحديد لم نجد سوي عمل النفع ، فيجب إتيانه أو عمـل الضر فيجب تركه ، أو ما لا نفع فيه ولا ضرر فالاشتغال به ملهاة وضياع وقت والأولي الإعراض عنه ، وكأنه اللغو .

فالضـمير هـنا رديف الواجب ومثيل الخلق الحسن في التحلي بالفضائل والتخلي عن الرذائل ، والتسامي عن السفاسف .

ويـتحدد الأمر ويتعين المجال صوب الغاية في شرفها وسموها والوسـائل الموصلة لها والمؤدية في الدائرة الأخلاقية الإسلامية بينما يفتقد كل ذلك أو بعضه في غيرها من الأخلاق .

عـن وابصة بن معبد أنه قال : أتيت رسول الله ﷺ فقال : جئـت تسأل عن البر ؟ قلت نعم . قال : البر ما اطمأنت إليه النفس . واطمـأن إلـيه القلب . والإثم ما حاك في النفس ، وتردد في الصدر ، وإن أفتاك الناس وأفتوك ..

وقـــد صـــور ذلـــك الصـــوت وكأنـــه المحاسبة والمراقبـــة والإمـــــام الغزالي الذي اختـــار عنوانا لـــه . المحاسبـــة والمراقبـــة فـــي كتابه " الإحياء " .

" للمراقـــب فـــــي عمله نظران . نظر قبل العمل . ونظر بعد العمل . أما قبل العمل . فلينظر إلي همته وحركته . أهي لله خالصة . أم لهوى النفس ومتابعة الشيطان . فيتوقف فيه ويتثبت حتى ينكشف لـــه ذلـــك بنور الحق فإن كان لله تعالي أمضاه . وإن كان لغير الله استحيى من الله وانكشف عنه .

وأما النظر الثاني للمراقب عند الشروع في العمل .

فذلـــك يتفقد كيفية العمل . أيقضي حق الله فيه ويحسن النية في إتمامه ويتعاطاه علي أكمل ما يمكنه .

وفـــي محاسبة النفس بعد العمل يقول الغزالي : ينبغي أن يكون للمـــرء آخـــر الـــنهار ســـاعة يطالب فيها النفس ويحاسبها علي جميع حركاتها وسكناتها ، كما يفعل التجار في الدنيا مع الشركاء في آخر كل سنة . أو شهر . أو يوم . حرصاً منهم علي الدنيا .

وقـــد ذكر الغزالي وجود قوة في النفس سماها مرة نوراً إلهيا . وأخرى معرفة . وبين أنها تهدي المرء وتقوده في عمله .

وقد تناول ابن مسكويه قوى النفس في كتابه تهذيب الأخلاق وأن منها القوة الباطنة أو العاقلة .

ووصـــفها بأنهـــا قـــبس مـــن النور قذف به الخالق إلي النفس البشرية ، ليكون لها هاديا ومرشداً . وأن النفس البشرية لذلك تشتاق إلي مـــا ليس من طباع البدن وتحرص علي معرفة حقائق الأمور الإلهية ، وتميل إلي الأمور التي هي أفضل من الأمور الجسمية ولذاتها .

وإن هذا الشوق يعتبر الفعل الخاص للنفس وهو يتجه إلي العلوم والمعـــارف مؤثـــراً لهـــا علي أفعال الجسم الخاصة به . وأن ذلك هو فضـــيلة الـــنفس ويحسب طلب الإنسان لهذه الفضيلة وحرصه عليها . يكـــون فضـــله . وهـــذا الفضـــل يتزايد بحسب عناية الإنسان بنفسه ، وانصرافه عن الأمور العائقة له عن هذا المعني بجهده وطاقاته .[١]

ومـــن خلال ما سبق من أقوال الغزالي وابن مسكويه وهما من رواد فلسفة الأخلاق في الإسلام . يكون الشوق أو النزوع مصدره في ذات الإنســـان . وقوة كامنة فيه ويتضح أن كل فعل من أفعال الإنسان وسلوكياته يمر بمراحل أو أدوار ثلاثة .

الأول : دور قبول العمل أو عدم قبوله . فكأنه بمثابة السلطة التشريعية.

الثاني : دور تنفيذ الفعل وإتيانه . وهذا يتماثل مع القوة التنفيذية.

الثالث : دور المحاسبة . رضا ، أو لوماً وعتاباً وهو بمثابة السلطة القضائية .

تلك هي النفس الإنسانية وما فيها من جوانب الفطرة التي فطرت

---

(١) انظر تهذيب الأخلاق ابن مسكويه (صـ ٧ – ٩) .

علـيها ، ومـا أودع فيها مـن قوي تتواصل وتتكامل لتشكل الإنسان وتقـوده ، وكمـا قلـنا سابقاً في المحيط الإسلامي ومجالاته الأخلاقية السامية . .

وقد عني فلاسفة الأخلاق بهذه القوة المكنونة المودعة في الفطرة الإنسـانية وجهـدوا فـي الكشف عن حقيقتها وتناولوها علي أنها هي الضـمير الإنساني ولكنهم ذهبوا فيها مذاهب ترجع إلي نظرة كل منهم لـتلك القوة . هل هي في أصل الفطرة أم أنها مكتسبة . وبالتالي تتأثر بالبيئة والتربية ونشير إلي هذه المذاهب ...

١ – مذهب الحاسة الأخلاقية . أو المدرسة الأسكتلندية :

يرجع أصحاب هذه المدرسة الضمير إلي الفطرة فهم يرون أن الضمير قوة فطرية غريزية . وأن موضوعها أو متعلقها الخير والشر . كما تتعلق الحواس بالمحسوسات . .

وعلي ذلك فلا دخل للتربية والكسب في أصل الضمير .

وأن تلـك القوة أو الضمير . موجودة عند الناس جميعاً ، وإن اختلفت قوة وضعفاً وشأنها شأن الحواس التي تميز بين المحسوسات .

فهي منحة من الله للإنسان فطرية تميز بين الخير والشر والنافع والضـار وهـي ليست عضوية بل قوة نفسية لإدراك الأعمال والحكم عليها ...

يقول الفيلسوف الإنجليزي : " شافتسيري " : -

" إن المـــرء مفطـــور علي حب الناس ونفسه . والفضيلة تكون بـــتوافق هاتيـــن الغريزيتن وقد تحاور " شافتسيري " في صورة تساؤل لكي يثبت ذلك علي هذه الصورة " إذا سألني سائل ، وقال : لماذا يجب عليك أن تبتعد عن القذارة . إذا كنت منفرداً ؟ فأول ما يتبادر إلي ذهني أن هذا السائل رجل قذر . وأنه من الصعب أن أدخل في ذهن مثل ذهنه الوسخ حقيقة النظافة ..

ومع ذلك إذا أغضيت عن هذه الصعوبة ، أمكنني أن أجيبه بأن السبب في ذلك لأن لي أنفاً يشم .

فـــإذا تثاقل وقال : فإذا كنت مزكوما ، أو فاقداً حاسة الشم مثلاً فلمـــاذا تبتعد ، أجبته بأني أبغض أن أري نفسي قذراً ، كما أبغض أن يراني الناس كذلك .

فإن عاد وقال : فإن كنت في حجرة مظلمة لا ترى شيئاً ، فهل تبتعد ؟

أجبته بأني حتى في هذه الحالة ، وليس لي أنف يشم ، ولا عين تبصـــر لا يـــزال إحساسي كما كـــان بألـــم مـــن القـــذرة والقذارة ، ونفسي الإنسانية تشمئز من الدني ، ولـــو لـــم أكـــن كذلك ، لانحططت عن درجة الإنسانية ولأبغضت نفسي لأنها نفس حيـــوان ... ويقول لو ســـأل ســـائل لماذا يكون الإنسان شريف النفس محبـــاً للفضيلة .. في الخفاء ؟؟ هذا السؤال لا أريد أن أصرح باعتقادي فيمن يسأله .. ويتفق

مع " شافتسيري " عالـم إنجليزي آخـر في الأخلاق واللاهوت ، وهو " هتشـون " والفيلسـوف الفرنسـي " جان جاك رسو " . فهو يرى أن الإنسـان مـذود بهـذه الغريزة الفطرية كالحيوان ، وأنه بهذه الغريزة الإلهـية يفـرق بيـن الخـير والشر ، مثلما تفرق العين بين السواد والبياض ...

وقفة مع هذا المذهب :

قد يستحسن العقل هذا المذهب ويراه مقبولاً بادئ الأمر ، ولكن عند التحقق يتهاوي عند النقد والتمحيص .

فلـيس كـل الناس علي هذه الشاكلة في معرفتهم للخير والشر والفضيلة والرذيلة علي مثال العين في معرفة الأبيض والأسود وكذلك بقية الحواس .

ويذكرنا ذلك بما عرف عن " سقراط " في جعله الفضيلة العلم . فمـن عرف الخير فعله . ومن عرف الشر تركه . وذلك كان سقراط فهل كل الناس كذلك . وأيضاً هذه التساؤلات عن القذارة المفروض أن تكـون حـواراً خيالياً وإلا لو كانت حقيقة . ومن سائل فإننا أمام سائل علي قوله قذر وسخ .. أليس إنسانا ، والمفروض أن عنده نفس الغريزة الفطرية .

وعلـي هذا المذهب . المفروض أن ينقضي الشر والرذيلة من المجتمع الإنساني عامة لأنهم مذودون بهذه القوة الفطرية ، بل ما احتاج الناس إلي أنبياء ومرسلين . وأيضا مربين .

ويـا ليـت هـذان الإنجلـيزيان رأيـا ما فعله الإنجليز بالعالم واسـتعماره ، ومـا ذاقـته البشـرية من الإنجليز الذين كانوا في أيام إمبراطوريـتهم التـي لم تكن تغرب عنها الشمس . وما أمر فرنسا . وغـيرها ببعـيد عن ذلك والتاريخ قديماً وحديثاً يرى أشياء وأفعال في وقـت مقبولة وعين هذه الأفعال يأتي زمان تصبح فيـه رذيلة بعد أن كانت فضيلة ، فالعربي قديماً كان يرى . أن من لا يظلـم الناس يظلم . وكـان يسـتحل وأد البنات وشرب الخمر وغيـر ذلك مـن الكبائـر والموبقات .

٢ – مذهب " كانت " :

وهو مذهب يجمع بين القول بالفطرة والقول بالكسب .

فهو يتفق مع المذهب الأول في القول . بأن الضمير فطرة ولدت مـع الإنسـان منذ يخلق ، ويخالفه القول بأنها حاسة ، فيقول إنها قوة عقلية . ويقسم العقل إلى :

١ – **عقـل نظـري :** يختص بإدراك المحسوسات ، ويعتمد في معارفـه علـي الحـس والـتجربة ، وهذا لا يصلح أن يكون مصدراً للأخـلاق ، لاعتماده علي الحواس والتجارب وهي غير مأمونة الخطا كما أنه يعتمد علي مقدمة قد لا تكون صحيحة .

٢ – **عقل عملي :** ويسميه " عما نويل كانت " الضمير :

وهـو عـنده قوة فطرية عقلية ، وجدت كامنة في الإنسان منذ الأزل وإلى الأبد لا تكتسب بالتجربة ، ولا تتوقف علي الحواس ، بل لا

تتصــل بالمادة نهائياً ، لأنها كما يقول كانت ، شعاع من نور هبط من القــوة العليا المطلقة غير المحدودة إلي النفس الإنسانية به تهتدي ، وبه تمــيز بين الخيــر والشــر ، كمــا أنه القاضي المعصوم والحكم الذي لا يعتور أحكامه ضلال .

وأن الواجب هو صوت الضمير وهو بعيد عن التعلق بالمكاسب الملــتوية ووســائلها فهــو يقــول في وضوح لا لبس فيه وصراحة لا غموض فيها .

لا تكذب مطلقاً ، وعامل الناس بالحسنى وإن لم تستفد من ذلك لنفسك أي لذات الحسنى ، ولو جاءك ضرر من هذا السبيل .

هذا الأمر هو ما يسمي أمراً مطلقاً ، وما يأمرنا به في كثير من الحــالات بتضحية عواطفنا ومنافعنا الخاصة ، وهو لهذا أساس الخلقية الكاملة عنده .

وهــذا الــذي ذهب إليه . " كانت " ومن تابعوه . من أن للعقل نظــراً عملــياً يدرك الحقائق . ويبين الخير من الشر . والصواب من الخطأ من الأعمال .

لا نسـلم معــه أن الضمير وجد تاماً . كاملاً لدي الجميع علي السواء .

فلئن كان شعاعاً من نور . كما يقول . فلم يكن بمثابة واحدة من القــوة في كل الأزمان . كما أنه من المسلم به أن حكمنا الأخلاقي على

بعــض الأفعال يختلف اختلافاً كبيراً عن حكم آبائنا السابقين . وما ذلك إلا ثمرة التجربة والتربية .[١]

وهذا المذهب يمثل جامعاً لجوانب كثيرة ، ولا يرد عليه ما يرد علــي غـيره مــن المذاهب وهو أولي بالاعتبار والأخذ . ولا يصادم الإسلام .

٣ – المذهب الكسبي . أو المدرسة الإنجليزية :

يذهبون إلي أن الضمير ليس قوة فطرية حسية أو عقلية ، بل هو قوة من الشعور الكسبي ، يستفيدها المرء بالتدريج .

وهــو لذلك يختلف بالبيئة ومؤثراتها ، كما أنه يختلف ويتفاوت باختلاف الأمم ، والأزمنة ، ومن أشهر علماء هذا المذهب " ستيورات مل " ...

يقول أصحاب هذا المذهب ...

إن المــرء ينشأ عادة في جماعة لها أعرافها وعاداتها وتقاليدها التي من مجموعها ينشأ ويتكون نظامها وقوانينها .

فما من جماعة إلا ولها أعمال ينظر إليها علي أنها حسنة ويثني عليها المجتمع من يسيرون عليها ماديا أو معنوياً أو كلاهما .

كما أنه يوجد أعمال يحرمها المجتمع ، ويعاقب فاعلها .

---

(١) انظر : مباحث في فلسفة الأخلاق : محمد يوسف حوسي (صـ ١٣٤ - ١٣٩) . ومقدمة علم الأخلاق : د/ محمود زقزوق (صـ ٣٠ – ٤٦) .

فالـــناس يألفون الخير ويفعلونه . ويكرهون الشر وينفرون منه بعاملـــي : الترغيـــب . والترهيب . ومع استمرار هذا وتطاول العهـــد بذلك . يألف ويعتاد الناس ذلك وينسون عاملي : الترغيب والترهيب .

فيحـــبون الخـــير ويميلون إليه ويبغضون الشر ويبتعدون عنه . وهـــم يفعلـــون ذلـــك بدافع نفسي باطني الذي يسمى بالضمير . وهذا المذهب وقيامه علي أن الضمير كسبي مطلقاً يترتب على الاعتداد به ، وجـــود فوارق دائمة بين المجتمعات في الجانب الأخلاقي بقدر ما بينها مـــن فـــوارق في التعلم والكسب كما أنه يربط بين الأخلاق والتعلم من جهـــة فالأمـــة الجاهلـــة في التعلم هي علي نفس القدر من الأخلاق . وعكسها الأمم المتعلمة يكون عندها من الأخلاق نفس القدر من العلم . والواقـــع أن الأمم جميعها تشترك في مبادئ وقوانين عامة في الأخلاق يكـــاد تجمع علي أكثرها . وأن هذه المبادئ هي التي يستقي منها رجال القـــانون والتربـــية والمـــبادئ العامة للأخلاق . ولولا وجودها وسابق معرفـــتها واستحسان الناس للجانب الأخلاقي منها ونفرتهم من الجانب السيئ منها ما أطاع الناس القوانين التي تنظمها .

فالمرء في الغالب ، لا يطيع القانون إلا لاعتقاده بعدالته . وهذا الاعتقاد مظنة ومصدره الفطرة التي فطر عليها الإنسان .

وخلاصة القول : بعد هذه المذاهب :

أن الضـــمير قوة فطرية في الإنسان ، وأن التربية والبيئة لهما دخـــل وأثر كبير في نموها وكمالها ، أو جنوحها وانحرافها ، كما من

مولـــود إلا ويولـــد علــــي الفطرة فأبواه إما يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه " ...

وإن كان هذا في المعتقد فإن الضمير وهو وازع الخير والفضيلة ينسحب عليه هذا بالأولي ...

الضمير والتربية :

١ – هل الضمير لا يحتاج لتربية ولا تهذيب ، لأنه لا يضل ولا يجهـــل فهو إذن لا يتغير ولا يتبدل ؟ يري بعض الباحثين هذا وخاصة الذين يقولون إن الضمير قوة فطرية أو نور قذفه الله وهم ينظرون إلي الضمير في أسمي حالاته وأنقاها وأصفاها .

وهم مع ذلك يفسرون ما يوجد من انحراف وشطط عن الجادة . راجع لضعف الإرادة والعزيمة ، وبالتالي فساد الخلق . وغلبة الشهوات ، والعلاج هو قمع الشهوات الجامحة ، والخروج عن سلطانها .

فيظهر الضمير ، بكامل سنائه وبهائه ، ونسمع صوته ، وأوامره واضحة جلية .

٢ – يذهـــب آخـــرون إلـــي أن الضـــمير كسائر القوى يتأثر بالشهوات وغلبتها وبإهمال أوامره ونواهيه ، فيخرج عن السبيل السوي فـــي أحكامه ، فالأمر لن يتوقف عند عزل الضمير وإبعاده بل إنه يعتل فـــيعمل بصـــورة خاطئة منحرفة في أدائه وأحكامه ، ولذلك يحتاج إلي تربية وعلاج ..

وبعض الآيات القرآنية قد تشهد لمن ذهبوا أولاً مثل " **﴿ وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب ﴾ . ﴿ وجعلنا علي قلوبهم أكنة أن يفقهوه ﴾ . ﴿ كلا بل ران علي قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ .**

وسواء أكان الضمير لا يحتاج إلي تربية وأن ما يحتاجه هو إزاحة الشهوات والعوائق فيتسيد الضمير ويؤدي وظيفته .

أو أنه يحتاج كغيره إلي علاج ووقاية ، فالحاصل والواقع أن الضمير تعتوره حالات تجعله غير صائب وغير مأمون العواقب في قضاءه وهميئته . ولذلك تغايرت الضمائر ، فمنها :

١ - الضمير المستقيم . وهو الذي لم تستطع القوي الجسمانية الأخرى شهوية كانت أو غضبية أن تأخذه ناحية الهوى والشر وتبعده عن جهة الخير والفضيلة ، وكأن هذا وراءه صنف الناس والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ...

٢ - الضمير الجاهل . وهو الضمير الذي يوحي بالشر وهو جاهل أنه شر كالأطفال الذين يعذبون الحيوانات ، فهم يجهلون أنهم بهذا الصنيع يعذبونها ، وبعض الناس الذين روي عنهم أنهم كانوا يقتلون آباءهم إذا طعنوا في السن حين لا يستطيعون إطعامهم ، أو أن يذهب الكبار بعيداً عن القبيلة حتى تفترسهم السباع ، وهؤلاء أشد ما يحتاجونه هو المعرفة وتغيير الفكر والمعتقد .

٣ – الضـــمير الشاك المرتاب . وهو الضمير الذي يعرض له التردد والحيرة والشك والارتياب لا في معرفة الخير من الشر ، بل في كل ما يعرض للمرء من واجبات وأحكام تراه متردداً لا يصل إلي قرار ، وعـــلاج هـــذا مشاورة من اشتهر بالحكمة وفصل القول والانتفاع – بذلك في التطبيق .

وإذا أردنـــا للضمير أن يقوم بمهمته السامية علي الوجه الأكمل فعليـــنا بتربيـــته وتهذيبه وكم أثمر التهذيب والتربية لكثير من الأعمال فالضـــحايا الانســـانية والقرابين التي كانت تقدم للمؤلهين ، وحق الحياة والموت الذي كان للآباء علي الأبناء لدى بعض الأمم . والنهب وقطع الطـــريق وقـــد كان ينظر إليه علي أنه بطولة عند البعض . واسترقاق الأســـري وغـــير ذلك من الأعمال التي كانت قديماً يستبيحها الضمير ويأمر بها في غير تحرج ، ولا تأثم وهي اليوم ينظر الضمير إليها علي أنها جرائم بشعة علي الإنسان تركها ، وعدم التفكير فيها .

وأخـــيراً فإن تربية الضمير تبدأ مع الطفل إذا شب وترعرع في الأســـرة وما تعيشه وتحياه من أخلاق ومعارف وآداب ، وأيضاً البيئة وما يسود فيها ويشيع من عادات وأعراف وتقاليد ، كما أن دور العبادة والتعلـــيم بالغ الأثر في ذلك مع القدوة الصالحة وقيام الحكومات بالسير علي تنفيذ الآداب والأخلاق . [١]

---

[١] انظر مباحث في فلسفة الأخلاق : محمد يوسف موسى (صـ ١٤١ – ١٤٦) .

الحكم الأخلاقي بين الغرض والنتائج :

سبق القول أن الحكم الخلقي لا يصدر إلا علي الأعمال الإرادية بحيث لا إرادة فلا حكم أخلاق . فوقوع جدار أو فيضان النيل أو جموح حصـــان ؛ هذه الأمور وأشباهها في جانب الضرر والمنفعة لا تخضع للحكم الأخلاقي حيث لا إرادة .

وحيـــن تكون الإرادة وراء العقل فهل نحكم علي الفعل باعتبار نتائجه أم باعتبار الباعث أي النية والغرض من هذا الفعل .

إن الإنسان يسبق غرضه فعله وأن الأعمال بالنيات .

فالطبيـــب الـــذي يعالج أو يجري عملية جراحية لا شك في أن غرضـــه ونيته شفاء المريض ، فلو حدث ومات المريض . فهل نحكم علـــي الطبيـــب باعتبار غرضه ولا شك أنه حسن . أو باعتبار نتيجة العمل وهي هنا سيئة .

بل قد ينعكس الأمر فيكون الغرض سيئاً والنتيجة حسنة .

كمن يوهم شخصاً ويخدعه بعمل وهو يظن أنه سيلحق به فادح الضرر ، ولكن نيتجة الأمر تؤول إلي مغنم ومكسب .

فعـــلى أي يكون الحكم الأخلاقي بل إن الفعل نفسه قد يكون من جهة خيراً ومن جهة شراً ، كما إذا رأينا إنساناً يحرق أوراقاً مالية ، فلو كـــان الإحراق انتقاماً من مالكها كان لا شك في أنه شر ، أما إذا كان تأديبا لمالكها لأنه قدم المال رشوة قلنا إنه خير .

والحق . أن العمل يحكم عليه بأنه خير أو شر ، نظراً لغرض الإنسان الذي يأتيه وليس للنتيجة .

فالعمل الذي قصد به الخير خير مهما استتبع من النتائج .

والذي أريد به الشر شر ولو استتبع نتائج حسنة .

والإنسان لا يلام علي عمل عمله يريد منه الخير مهما ساءت نتائجه بشرط أن يكون قد بذل جهده في معرفة ما ينتج من عمله . أما إذا ثبت قصوره ، فيتوجه اللوم والمسئولية إلي تقصيره في الأداء أو عدم الدقة في حساب النتائج . (١)

المسئولية الخلقية :

سبق القول أن الحكم الأخلاقي يتعلق بالأعمال الإرادية خيراً أو شراً ومع ضرورة وجود هذه الإرادة كأساس يقوم عليه الحكم الخلقي ، إلا أن الحكم الخلقي يحتاج مع هذه الإرادة إلي تحقق شروط لازمة حتى يتسنى الحكم على الفعل ، وبالتالي إيقاع المسئولية ثواباً أو عقاباً ، ونستطيع القول بأن المسئولية حالة للإنسان يعتبر فيها مؤاخذاً علي فعله أداءً أو تقصيراً .

وتلك الشروط التي تكون عليها الحال متحققة تكتمل المسئولية الخلقية ، وما سواها من المسئوليات .

---

(١) انظر الأخلاق : د / أحمد أمين (ص ١٨ ـ ٢٢) . والعقيدة الإسلامية والأخلاق : د / محي الدين الصافي وآخرين (جـ ٢ ص ٧٩ ـ ٨٠) .

١ – لابــد لأية مسئولة سواء أكانت خلقية أم دينية . أم قانونية مــن توفــر العقل وظهوره في الشخص ، فالتكليف الشرعي يدور مع العقــل وجوداً وانتفاءً ، وكذلك المسئولية الخلقية وغيرها فالمجنون لا تكليف عليه من الشرع ، وليس أهلاً للمسئولية الخلقية أيضاً .

٢ – الشــعور والمعايشــة للجماعــة وإدراك قوانينها وآدابها ووضـــوح مـــا هو الخير والنفع والشر والضرر ، وأن كل ذلك ملزم مفروض علي الفرد فلو نشأ إنسان في غابة مع الحيوان أو في عزلة في الجــبال وغيرها وكان عاقلاً فإنه يفقد المسئولية الأخلاقية وربما سواها من المسئوليات ، ولا يصير أهلاً لتبعتها إلا بالعيش في جماعة وإدراك ما هو الخير والشر .

٣ – الحرية . التي يستطيع بها أن يختار أفعاله عن إرادة حرة ، لا إجبار فيها ولا إكراه فما يأتيه الإنسان وهو مجبر مكره لا جزاء عليه ثواباً أو عقاباً أي أفعال الخير وأفعال الشر .

٤ – القــول بالشــعور والمعايشة الاجتماعية يلزم منه العلم . بالعادات والآداب وإدراك الخير والشر ، كما سبق في إعفاء المنعزل أو البعــيد عن الاجتماع ، وما ذلك إلا لجهله الخير والشر ، فهل إذا تحقق الجهــل من إنسان للخير وللشر رغم أنه في مجتمع يكون عذراً له من تحمل التبعة . والمسئولية الأخلاقية من يري أن الجهل سبب يمنع تحمل تلك التبعة يجعل ذلك . مطلقاً أي كمن كان منعزلاً أو معايشاً ، وذهب آخــرون إلي القول بأن المعايشة نافية للجهالة وبالتالي لا يعذر بالجهل خاصة في أيامنا هذه .

ونري أن الجهل . المفروض أن يقدر بقدره وظروفه فلا نعتد به مطلقاً ولا نسقطه كلية فهما كان التعايش فإن البعض قد يكون بعيداً عن المعايشة الأخلاقية رغم وجوده بين الناس لعوامل مختلفة وعلينا النظر إلي هذه العوامل وتقديرها .

تكوين الخلق :

مما سبق يتضح أن الخلق كحالة يكون عليها المرء بحيث تصدر عنه أفعاله بسهولة ويسر من غير حاجة إلي فكر وروية ، فأنه يستعمل علي ما يشبه العادة أو الطبع وكأنه قد أصبح سجية للمرء .

وهذا الذي صار خلقاً يبدأ ميلاً ضعيفاً يشتد فيصير رغبة أو نية أو موجـوداً ثم يصير إرادة راسخة في النفس فخلقاً تصدر عنه الأفعال بيسر واعتياد والأمر لا يتوقف علي هذا المسار بل إن هذا المسار يتأثر بعوامل ومكونات الحياة مثل الوراثة والبيئة والأعراف وغيرها .

ولكـي نسـتبين تأثير هـذه العوامل نبدأ بالإنسان وما قبل في فطرته ، لنري أبعاد وتكوين الخلق والمسئولية الأخلاقية .

١ – الفطرة الإنسانية :

تعـددت آراء الفلاسفة والباحثين في الأخلاق في فطرة الإنسان بالنسـبة لكـل مـن الخير والشر ونعرض هنا لأهم هذه الآراء بالبيان والتوضيح .

١ – فطرة الخير : ذهب إلي ذلك " سقراط " والرواقيون ومن تابعهم إذ يرون أن الإنسان قد فطرت نفسه علي الخير ولا يتحول عنها إلي الشر

إلا بعوامل طارئة على فطرته . كمخالطة الأشرار أو تأثير البيئة والتربية ، وغير ذلك مما هو في سيطرة الشهوات والنزوات . وتلك الرؤية في تساميها بالإنسان وتكريم فطرته رؤية من جانب واحد هو الجانب الأسمى في الإنسان ، وهذا الجانب هو ما ينصب عليه التكريم لبني آدم جميعاً . ولقد كرمنا بني آدم . أو كما ورد في الأثر . خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين . أو هم العباد المخلصون الذين أقر إبليس بعدم قدرته عليهم . قال : **﴿فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين﴾** ، ولكن النفس البشرية بها جانب آخر وهي بين الفجور والتقوى ، وبين أحسن تقويم ، وأسفل سافلين . وتلك هي أبعاد الإنسان ولا نبتعد عن الصواب أن الفطرة أهل لهذا وذلك .

فلو كانت خيراً ما رأينا شراً البتة . ولو كانت شراً ما وجدنا خيراً وتغليب الخيرية وظهورها لأن الخير يتوافق مع مصلحة الإنسان ونفعه ونفع غيره وسبب سعادته وسعادة غيره ، ومن هنا قوة الخير ، والعمل على منع الشر ، وجنده لما يتأتى عنه من مضار ومفاسد للناس .

وقد وجه " جاليونوس " الطبيب المعروف الذي عاش في القرن الثاني النقد لخيرية الفطرة مطلقاً ، فقال :

(وإن كان كل الناس أخياراً بالطبع وانتقلوا إلي الشر بالتعليم . فمن علمهم . فإن غيرهم علمهم ، فهو شرير بطبعه . وإذن ليس كل الناس أخياراً بالطبع ، وإن كانوا تعلموا الشر من أنفسهم . فإن كان فيهم

مــيل إليه فقط ، فهم أشرار بالطبع ، وإن كان فيهم مع هذا الميل ميل آخر إلى الخير إلا أن الأول غالب يكونوا أشرار بالطبع) .

وهذا يعني نفي خيرة الفطرة بالطبع بهذا التوجيه .

٢ – الفطــرة مطـبوعة علــي الشــر : ذهب إلي ذلك أكثر البراهمة والبوذيين ، وأفلوطين المصري الذي عاش في القرن الثالث الميلادي ، ومن تبعهم ومن المفكرين والشعراء .

يقول أبو العلاء المعري المتوفي ٤٤٩ هـــ :

فظن بسائر الإخوان شــــرا * ولا تأمنن علـــي ســـر فؤادا

ويقول :

وفضيلة النوم الخروج بأهله * عن عالم هو بالأذى مجهول

وهذا الرأي عكس الرأي الأول والنظرة فيه إلي الجانب السيئ أو الآخر من الإنسان ، ويرد عليه ما يرد علي الأول أنه نظرة إلي جانب واحد .

والواقـــع لا يصدقه ففي الناس الأخيار والفضلاء . أمثلة وقدوة كمـــا فـــيهم آخرون علي العكس تماماً . يقول ابن مسكويه في القول الأول ، وينطبق أيضاً علي الثاني .

" إن هذين الرأيين يؤديان إلي إبطال قوة التمييز والعقل ، وإلى السياســات كلهـا ،وترك الناس جميعاً مهملين ، وإلي ترك الأحداث ، ظاهر الشناعة . [١]

---

[١] تهذيب الأخلاق (صـ ٢٦) .

٣ – اكتساب وليس فطـرة : وهـذا رأي الفيلسـوف الألماني " كانت " إذ يـرى أن الطفل حين يولد لا توصف فطرته بالخبر ولا بالشر فهو إلـى سـن معيـنة لا يدرك ما يفعل وقد رد عليه بأنه خلط بين مناط المسئولية علي العمل وهو العقل وبين الفطرة ووصفها بالخير أو الشر . بصرف النظر عن أهلية المسئولية وعدمها .

٤ – تـنوع الفطـر : يـرى " جالينوس " أن بعض الناس قد طبعت فطـرتهم علـى الخير وهم قليلون جداً ، وبعضهم طبعت فطرتهم علي الشـر وهـم الأكثرون ، ولا يمكن أن ينتقلوا إلي الخير وبعض ثالث . توسطت فطرتهم بين الخير والشر . فكانت مستعدة لكن منهما وهؤلاء يمكـن تغيـير أخلاقهـم مـن الخير إلي الشر أو العكس تبعاً للعوامل والدوافع ، ومن خلال الآراء وما فيها من نظرات كلية .

فإن الرأي الذي يتوافق مع الإسلام هو :

أن الطفـل يخلق ، وفيه استعداد للخير والشر وتوجيهه إلي أي منهما ناتج عن مؤثرات وعوامل الأسرة والبيئة والتعليم وغير ذلك من المؤثرات النفسية والاجتماعية والتربوية .

يقول الله – عز وجل – ﴿ **ألم نجعل له عينين ولساناً وشفتين * وهديناه النجدين** ﴾ هما طريق الخير والشر .

ويقول الله – عز وجل – ﴿ **ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها** ﴾ وقول الله ﴿ **إن هديناه السبيل إما شاكراً وإما كافوراً** ﴾ .

وحديث رسول الله ﷺ (ما من مولود إلا ويولد على الفطرة وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ...)

وقد ذهب الإمام الغزالي في بيان تربية الطفل أن الصبي خلق قابل للخير والشر جميعاً ، وإنما أبواه يميلان به إلي أحد الجانبين .[١]

بينما يذهب ابن خلدون إلي القول :

إن أهل البدو أقرب إلي الخير من أهل الحضر وسبب ذلك أن النفس إذا كانت علي الفطرة الأولي كانت متهيئة لقبول ما يرد عليها ، وينطبع فيها من خير أو شر .

ثم ذكر حديث الرسول ﷺ (ما من مولود إلا ويولد علي الفطرة ...)

ثم قال : " ويقدر ما سبق إليها من أحد الخلقين تبعد الآخر ويصعب عليها اكتسابه " .

فصاحب الخير إذا سبقت علي نفسه عوائد الخير وحصلت لها ملكته بعد عن الشر ، وصعب عليه طريقه ، وكذا صاحب الشر .

ويعلل ابن خلدون تلون أهل الحضر (المدن) بكثير من مذمومات الخلق والشر ، إلي كثرة فنون الملاذ وعوائد الترف والعكوف علي الشهوات عكس أهل البدو فهم أقل من أهل المدن في ذلك .[٢]

---

(١) الأحياء (جـ ٣ صـ ٥٤) .

(٢) المقدمة (صـ ١٣٨) .

الفصل الثالث

﴿ الفكر الفلسفي والأخلاق العملية ﴾

١ - مصر القديمة :

أصبح من الثابت أن أمم الشرق القديمة كمصر والصين والفرس والهند . بلغت شأواً بعيداً في الرقي الحضاري ومنه التفكير الفلسفي وما فيه من جانب الأخلاق النظرية والعملية نشير فيما يلي إلي جانب منها ..

عرف المصريون القدماء كثيراً مما نعرفه الآن من الأخلاق العملية ، وكان للعدالة الفردية والاجتماعية أهمية لا تعد لها أهمية .

ولا يجب أن تهتم مصر وأمم الشرق القديمة بالأخلاق الراقية فهي دعوة الحياة والاجتماع وما تتطلبه العلاقات المتبادلة تقتضي التفكير فيما هو نافع أو ضار خيراً أو شراً . من ذلك ما أثر عن أحد الفراعنة يوجه وزيراً له طالبه . " بأن يهتم بأمور الناس جميعاً . البعيد منهم والقريب . والمجهول منهم والمعروف . فإن أصدق واجبات الأمراء العدالة .. " .

وقد كتب أحد الحكام علي قبره في بني حسن .

" إنه لم يسئ في معاملة أي من الناس . ولم يظلم أرملة ولم يمتهن فلاحاً ولم يطرد راعياً . ولم يسخر في أعماله عمالاً بلا أجر ، وبذلك زال البؤس عن ولايته .

كما وجد في كتاب الموتي دفاع الميت عن نفسه أمام " اوزيريس

" إنني لم أقترف إثماً ، ولم أعتَدِ علي أحدٍ ولم أسرق ولم أتسبب في قتل أحد غيلة وغدراً . ولم أبخل بشئ من القرابين الإلهية ، ولم أكذب ، ولم أجعــل أحــد يبكي ، ولم أكن دنساً ، ولم أقتل الحيوانات المقدسة ، ولم أتلف أرضاً مزروعة ، ولم أشك بأحد ولم أغضب مطلقاً ، ولم أزن ولم أرفــض سماع الحقيقة ، ولم أسئ لا إلي الملك ،ولا لأبي ، ولم أُلوث الماء ، ولم أجعل سيداً يسيئ معاملة عبيده ، ولم أحنث في يميني ، ولم أغــش في الميزان ولم أحرم رضيعاً من مرضعته ، ولم أصد شيئاً من طيور الآلهة ولم أمنع الماء في إبانة ، ولم أقطع قناة ماء عن مجراها ، ولــم أطفئ ناراً حين الحاجة إليها، ولم أستخف بصوت الله في قلبي ، إنّي طاهر ، إنّي طاهر .

ومـــا تلك الصورة المثالية إلا لأنهم كانوا يعتقدون في الحساب والجزاء .

وأن كل إنسان مسئول بعد موته وسيقف أمام محكمة مؤلفة من اثنيــن وأربعين قاضياً من الآلهة برياسة " أوزوريس " وأن مصيره إما النعيم أو العذاب . (١)

---

(١) تاريخ مصر . بريستد . ترجمة د / حسن كمال (صـ ١٦٠) . وانظر تاريخ الأخلاق : محمد يوسف موسى (صـ ١٥) .

٢ – الفرس :

" الزراد شتيه " : كانت ديانة الفرس قديماً ، وتقوم هذه الديانة علي الاعتقاد بوجود إلهين أحدهما للخير والحق والنور يسمى " أورموز " أو " هورموز " ، وإله للشر والظلمة يسمي " اهرمن " .

فالأول صنع السماء والأرض والملائكة والصالحين من الناس .

والثاني صنع المردة والشياطين من الإنس والجن .

ولذلك صار العالم حزبين والصراع بينهما مستمر حتى يتغلب في النهاية الخير وحزبه فيندحر الشر وحزبه .

ومزية هذا الإحساس واليقين والتفاؤل بالنصر للخير والسلام في المنتهي ورغم خلوه من النزعات الصوفية التي تبتعد عن الشر في الحياة والمتع فهو مذهب لا يدعو إلي القعود والأعراض عن الدنيا بل يدعو إلي سد ما يفتحه مبدأ الشر وحزبه من أبواب الفساد والدمار .

ومعارضة كل ذلك بوسائل تمكن للخير في هذه الدنيا إذ أن الحرب بين الخير والشر قائمة في كل وقت حتي النصر .

٣ – الصين :

" كونفشيوس " : (٥٥١ ق . م) ومذهبه أشهر المذاهب عند عامة الصين . يحتل الواجب في تعاليم . " كونفشيوس " المكان الأول .

فالواجب مقدس وعظيم وهو قانون الأخلاق ، الذي يجب الالتزام به في الفعل والترك .

فلـــيس لأحد أن يحيد عنه لمنفعة أو لذة أو غيرهما . وأي عمل يقصد به شئ من هذا يفقد قيمته الأخلاقية . ولا يكون مستحقا أنه عمل فاضل وإذا كان مبعث الأعمال عند الإنسان هو الواجب فإنه يشعر عند أدائـــه بالســـعادة الكاملة التي لا يشعر بها أحد من النفعيين . الذين لهم مآرب خاصة من أعمالهم غير القيام بالواجب وحده .

أما ما هو الواجب ؟ فهو الصوت الذي يحسه كل منا في قرارة نفسه ... فعلينا الاستماع إليه والاستجابة له ومن يفعل ذلك يكون مؤدياً للواجـــب ســـعيداً بـــــه وفاضلاً . وكأن " كونفشيوس " يعبر هنا عن الضمير .

ويرى " كونفشيوس " أن المرء يجب عليه أن يحاسب نفسه علي أعماله .

فـــإن مـــن حاســـب نفسه ولم يجد أنها أخطأت . فلا يحزن ولا يخاف . ويرى " كونفشيوس " أن المرء يولد مفطوراً علي الخير ، وأن القدوة لها كبير الأثر .

فهو يقول : كلما سرت بين رجلين وجدت لنفسي أستاذين ؛ من له فضائل فهو قدوتي ، ومن له رذائل فهو عبرتي .

ويعتبر " كونفشيوس " أن رأس الفضائل هو حب الآخرين . من قـــوة وعاطفة ، وأن الناس جميعاً اخوة ، وبالتالي فإن الصالح العام له أهمـــية بالغة ولذلك قال : من العار ألا تهتم إلا بالرواتب والدولة تحت سياســـة حكـــيمة ، ويقصـــد بذلك حب العمل وأداء الواجب . وتحقيق

الصـــالح العـــام . ومن العار أيضاً ألا تهتم إلا بالرواتب والدولة تحت سياسة غاشمة ، وكأنه يريد أن مواجهة الغاشم والمستبد والظالم أهم من الرواتب وتقويم المعوج من أمور الأمة العامة (١)

ويتضـــح مـــن هـــذا بروز الناحية العملية في الأخلاق الفردية والاجتماعـــية والسياسية عند "كونفشيوس" بصورة ليس لها كثير من النظائر .

٤ – الأخلاق عند اليونان :

تســـير المباحث الأخلاقية عند اليونان نفس المسيرة الفلسفية فقد مـــرت الفلســـفة في اليونان بأدواره هي دور التمهيد والأعداد ، ودور الإنشاء والبناء والنضوج ودور الضعف والانحلال .

ففي الدور الأول حتى سقراط نجد الأخلاق لا تعدوا غالباً حكماً ونصـــائح تجـــري علـــي ألسنة الشعراء والحكماء أو آراء منشورة في بعض نواحي الأخلاق .

لا تبلغ من الإحاطة والتماسك درجة تسميتها علماً .

الدور الثاني :

١ – "**ســـقراط**" : ســـبق السوفسطائيون سقراط وأدركهم وقد عاش بين (٤٧٠ – ٤٠٠ ق . م) . وقد عبث السوفسطائيون بالحقائق

---

(١) انظر الفكر الشرقي القديم . جون كولر ، ترجمة كامل يوسف حسين ، عالم المعرفة ، الكويت ، ١٩٩٠م (صـ ٢٧ وما بعدها) ، وفلاسفة الشرق : أوف ترملين . عضو الجمعية الأسيوية الملكية (صـ ٢٥ وما بعدها) .

والمعارف وأزاحوا عنها الثبات وجعلوها نسبية فردية ، فكل إنسان وما يري ، وكان لهذا أثره في الأخلاق أيضاً.وقد هب سقراط في وجوههم وأقوالهم ، ووهب نفسه لتعليم شبان " أثينا " الأخلاق واعتبر نفسه رسولاً يؤدي رسالة ، وعليه أن يضحي في سبيل هذه الرسالة بكل شئ ، لذلك لم يأخذ أجراً أو يجمع ثروة ، كما كان يفعل السوفسطائيون ، بل إنه في سبيل عنايته بتهذيب النفوس ، أهمل مصالحه الخاصة وتنمية ثروته ، ولكي يجعل لكلامه التأثير المرجو . جعل من نفسه مثلاً أعلى لما يقول ، فكان ما ألزم به نفسه من أخلاق وفضائل سامية عوناً له في نشر رسالته حين يعرض للغير ويحاول تقويم المعوج من الأخلاق . ذلك أنه كان يتخذ الدين ونظم الحكم موضوعاً هاماً لحواره كما كان يتخذ مادة أعمال وسيرة من يريد مواطنيه فكأنه كان رقيباً علي العادات . وكل يعتبر نفسه أباً وأخاً كبيراً لمواطنيه . وله الحق لهذا في أن ينصحهم بما رآه وأن يحضهم علي فعل الخير .

فكانت حياته نضالاً مستمراً تقويماً للأخطاء والأوهام الشائعة في عصره التي أشاعها ونشرها السوفسطائيون الذين كانوا يقضون علي الأخلاق والفلسفة معاً واستمرت جهوده متصلة لفهم الإنسان وما يتصل به من أخلاق ، وإليه ينسب فضل وضع أساس علم النفس ، وتأسيس علم الأخلاق عند اليونان ، وقد دفع حياته ، واتهم بتهم نسبها له أعداؤه ، وخير بين ترك أثينا . أو المحاكمة ثم يهرب ، وشرب السم وقضي حياته كما قيل شهيداً للظلم .

أ – سقراط والأخلاق :

لـم يعن سقراط كغيره من الفلاسفة الذين سبقوه في أن يحصر فكـره في دائرة خاصة كالطبيعيات والرياضيات ، وفقط ، بل أنه اهتم بـالغ الاهتمام بالإنسان والأخلاق وهو كما يقول عنه " شيشرون " أنه أنزل الفلسفة من السماء ، وسقراط بمنهجه في تعرف المسائل والقضايا وتحديدهـا ووضع تعريف لها . جعله يرى أن الفضيلة واحدة ، وأنها العلم أو المعرفة ، وأنها من الممكن أن تعلم كسائر العلوم .

هـي واحدة . لأنها كما يقول علم الخير . وكثرتها من تعدد مظاهرها المختلفة ، فمثلاً معرفة الأقدام والأحجام في الحرب تكون المعرفة . هنا الشجاعة . ومعرفة البذل والإمساك ومتي يجب أي منهما كرم .

ومعرفة متي إشباع الشهوات ، ومتي تقهر ؟ عفة ، وهكذا شأن الفضائل الأخرى والفضيلة من الممكن أن تعلم ، لأنها عند سقراط نوع من المعارف يصح اكتسابها وتعلمها . ولكن لا بوساطة التفكير النظري فقـط ، كمـا هو الشأن في علم الطبيعة ، وغيرها بل بالتفكير النظري والتطبيق العملي أيضاً .

وقـد اعتبر سقراط أن الفضيلة العلم . فمتى حصل العلم لم يبق محـل للفصل بين العلم والفضيلة ، لأن الذي يعلم حقيقة أن هذا الأمر خـير يفهم ويوقن طبعاً أن من صالحه أن يعمله ، والإرادة تتبع ذلك ، لأن الإرادة لا يمكـن أن تأتـي غيره فتكون ضد العقل ، والإرادة تتبع العقل ، فالشر والرذيلة علي هذا ضلال للعقل أولاً .

إذن متـــي علمـــنا أن هذا خيراً أردناه ، ومتي أردناه عملناه .
وهـــذا يعنـــي توافق الإرادة والعقل ، وبالتالي فإن الخير يتحقق بالعمل يوافق العلم والمعرفة .

ومن الواضح أن الربط بين المعرفة والعمل عند سقراط يناقضه الواقع ، والناس فإتيان الفضيلة عن علم شئ مرغوب ويسمو بصاحبه .

ولكـــنا لا نسلم وبشهادة الواقع أن كل من علم الخير فعله ومن علم الشر تركه ، فكم من عالم بالخير ويأتي الشر . ولكن عذر سقراط أنـــه كـــان يرى أن الناس مثله في تقديس المعرفة والالتزام بها في التطبيق .

ب – المعرفة والسعادة :

إذا كان الخير نافعاً . كانت النتيجة أن غاية الأخلاق هي السعادة والسعادة هنا أساسها العلم بالخير والفضيلة وهي أي السعادة هي الجزاء الـــذي يتمـــثل فـــي اطمئنان النفس والفرح الداخلي ، ولا يتأتى هذا إلا بالاعـــتدال والـــتحرر مـــن أسر الخيرات الخارجية ، كالغني والجاه ، ونحوها ، مما يعتبره الناس عادة سعادة ، فالفضيلة العليا هي الحكمة أو العلـــم بالخـــير والشر . وبالتالي التطبيق فالسعادة أو الألم ، وإذا كانت الســـعادة تجيئ في اثر الفضيلة التي هي المعرفة بما هو خير ، فكيف نعرف أن هذا العمل خير وذاك شر ؟ .

يجيـــب سقراط عن هذا بأن للخير أصلاً ثابتاً لدينا ، أو بعبارة أخري بأن الخير يعرف بالضمير الذي يهيب بنا صوته أن أعمل هذا أو

أترك ذاك . وأوامر هذا الصوت قوانين غير مكتوبة تنال موافقة الناس جميعاً ، لأنها عامة وإن لم يشتركوا في وضعها .[١]

٢– أفلاطون :

هــو تلميذ " سقراط " وأستاذ " أرسطو " ولد سنة ٤٢٧ ق. م . وقــد أودع " أفلاطــون " فلسفته فــي رسائــل ومحاورات كثيــرة ، أدارها علي لسان سقراط في أغلبها . ويصعب تمييز أخلاقه من أخلاق " ســقراط " لأننا لم نعرف هذا إلا من ذاك . ولأن الروح الغالبة التي استوحاها فــي آرائه هي روح سقراط وينسب إلي " سقراط " قوله عن " أفلاطــون " كم من أشياء جميلة لم أفكر فيها مطلقاً جعلني أقولها هذا الشــاب . وقــد أتم أفلاطون ما بدأ به سقراط . وتوسع فيه وجعل بين الأخلاق والسياسة والاجتماع علاقة وثيقة العرى .

أ – الفضيلة عند " أفلاطون " :

إن كانــت روح " ســقراط " قــد غلبت علي " أفلاطون " في الأخلاق ، فإنه أيضاً أخذ في فلسفته كثيراً من آراء الفلاسفة السابقين ، ولكــنه توسع في كل ذلك . وطبع كل ذلك بطابعه الخاص ، وقد اتجه إلي النفس وقواها وبين فضيلة كل قوة من قوي النفس .

وهذه القوى هي القوة الشهوية ، والغضبية والحكمية (العقلية) ،

---

(١) تاريخ الفكر الفلسفي : د / محمد علي ريان (صـ ١٢٤ ــ ١٣٠) . تراث العالم القديم : ترجمة زكي سوسي (صـ ١٨١ ــ ١٨٥) ، تاريخ الفلسفة اليونانية (يوسف كرم صـ٢٥ ــ٥٣)

ثـم العدالة التي تنشأ من اعتدال وتعادل القوى الثلاث ، وهي الفضيلة فاعتدال الشهوية يولد العفة ، واعتدال الغضبية يولد الشجاعة . والعقل بالتأمل والتفكير الصحيح وعدم التناقض يولد الحكمة .

ويذهب سقراط إلي أن العفة والشجاعة يجب أن يكونا في خدمة الحكمـة التي هي أم الفضائل . علي أن المرء لا يكون فاضلاً بحق إلا إذا كـان يعمل الخير للخير ، والفضيلة لذات الفضيلة . والفضيلة عنده هـي الوسـط بين الإفراط والتفريط . والحكمة هي خير ما نملك وبها يكون للمرء كل شئ من شجاعة وعفة وعدالة ، وبالتالي بفقدها نفقد كل شئ .

ويقصـد أفلاطـون بالعدالة التوافق والانسجام بين قوي النفس بواسـطة العقل فلا تبغي واحدة علي أخرى بل تكون في سلام ووئام ، كإخوة يساند بعضهم بعضاً ، فكلهم أبناء الحكمة وإن كان بعض أفضل من بعض .

ب – الخير المطلق :

مفهـوم الخـير المطلق عند أفلاطون . هو ما يكتفي بنفسه ولا يكون وسيلة لغيره ، وهذا فرق ما بينه وبين سائر الخيرات .

فاللذة وحدها أو المعرفة وحدها ليس أي منهما الخير المطلق ، ولكن بما أن هذين هما كل ما نعرف من الخيرات . يجب أن يكون ذلك الخير هو جماعهما ووليد اتحادهما، الخير المطلق إذن هو مزيج يستقي من هذين الخيرين ، وبعبارة أخرى هو مزيج متناسب من اللذة والمعرفة .

جـ - السياسة والأخلاق :

يــربط أفلاطون بين الفرد والدولة برباط أشبه ما يكون عضوياً أخلاقــياً وعملــياً فالفرد في حاجة إلي الجماعة لأنه لا يمكنه الاستغناء بنفســه ولا تحقيق الغاية من الكمال إلا بالجماعة . أما الدولة فهي عنده الفــرد مكبراً ، وفي كل منها قسم حاكم ومحكوم ، وثالث يساعد الأول فــي مهمــة الحكم ، وكل ما يفضي إلي الفضيلة في الفرد يفضي إلي وجودهــا فــي الدولــة وإذا قام كل بما عليه تحقق الكمال ، وقد وضع شــروطاً لتنشئة الشباب عليها تجمع بين الشجاعة والحكمة والأخلاق ، وأن يكون الحاكم مع ذلك فلسفي النزعة .

وهكــذا ربط أفلاطون السياسة بالأخلاق والأخلاق بالسياسة في جمهوريته حتى أنه وصل إلى نوع من الشيوعية في النساء والأولاد من أجــل خير الدولة وهو عند التحقيق لا يتوافق مع أغلب أخلاق البشر ، والحــيوانات أيضــاً ، ولكــنها الدولة التــي يريدها فيلسوف أن تكون فلسفية . (١)

٣ - أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ ق . م) :

ولــد أرسطوا في أسطا غيرا وهي مدينة مقدونية ، وكان والده صــديقاً وطبيباً للملك " منيتاس " جد الاسكندر الأكبر . فنشأ في أسرة طبــية ولهــا صلات بالملك ، وكان لهذا كبير الأثر في حياته وفلسفته

---

(١) الجمهوريــة : أفلاطون (صـ ٢٠٥ - ٢١٠) . وانظر المثل الأفلاطونية : عبد الرحمن بدوي (صـ ١٥٠ - ١٥٥) .

وخاصـــة السياســية والأخلاقية ، فحاول تثبيت الحكم في إمبراطورية الاســكندر المقدونـــي الــذي عهد إليه تربيته وهو شاب كما أنه تتلمذ لأفلاطون .

أ – الأخلاق :

الأخلاق عند أرسطو من أقسام العلم العملي وهي فرع من علم السياسية لأن تحقيق خير الدولة مقدم علي تحقيق خير الفرد ، ولما كان الناس يختلفون في تحديد معني الخير . لهذا فإن الاستدلالات البرهانية لا تصــلح كمــنهج في هذا العلم إذ أن مباحثه ليست موضوع تصديق يقيني .

ويــبدأ لذلك أرسطو من تجارب السلوك الأخلاقي الواقعة والتي يمارها الناس في واقع حياتهم . استناداً إلي العزف والتقاليد الموروثة .

ويجعــل مــنها موضوعاً لدراسته الأخلاقية . علي العكس من أفلاطــون . الذي ربط السلوك الأخلاقي بمثل أعلي هو الخير بالذات ، ولمـــا كانت السعادة هي غاية كل فعل إنساني . لهذا فإن الناس يتفقون علي أنها هي خيرهم الأعظم أي السعادة .

فمــنهم مــن يراها في اللذة أو في الصحة أو في الثروة أو في المكانة الاجتماعية .

ولكن الفضيلة قد لا تكفي . فقد تنزل الكوارث والمحن بالرجل الفاضــل ، وتقضـــي علـــي سعادته ، ومن ثم فإن السعادة الحقة . في ممارسة حياة الحكمة والتأمل ، وهي خير الإنسان الأسمي . الذي يتفق

مع طبيعته الناطقة . من حيث أن السعادة هي الفعل المطابق للفضيلة . والــتأمل هو أسمى فضيلة للنفس الناطقة . فهو إذن تمام الفعل للوظيفة الأساسية للإنسان وهي النطق . ثم إنه يتعين علينا أن نبحث عن معني الفضـــيلة ومدلولهـــا ، والفضائل منها ما هو عقلي يحتاج إلي التعليم ، ومنها ما هو خلقي يحصل بالتعود والممارسة واتباع القدوة الصالحة .

ويعــدد أرسطو أنواع الفضائل الأخلاقية . ويضع العدالة على رأســـها وهو يعرف الفضيلة ، بأنها ملكة اختيار الوسط العدل ، وليس الوسط الحسابي ، فهي ما بين الإفراط والتفريط .

فالشجاعة وسط بين التهور والجبن ، والكرم وسط بين الإسراف والبخل .

وعلـــي الرغم من أن الفضيلة وسط . إلا أنها الحد الأقصى من الخير .

ب – السياسة :

يـــرى أرســـطو أن الإنسان مدني بطبيعته ، فهو في حاجة إلي العـــيش في مجتمع ، والمجتمع في حاجة إلي قانون وعدالة لكي يحمل الفرد علي التربية الفاضلة .

ووظيفة الدولة تحقيق سعادة المواطنين جميعاً . وتعليم الفضيلة للصغار والكبار . والأسرة هي الخلية الأولي في المجتمع .

وتـــتكون الأســـرة عـــند أرسطو من الزوجين والبنين والعبيد . والرجل أكمل عقلاً من المرأة ، وهو رأس الأسرة والدولة أيضاً ومهمة

المرأة العناية بالمنزل والأولاد تحت إشراف الرجل .

ولــيس بصحيح ما قال أفلاطون أن المرأة مساوية للرجل وأما البنون فهم لوالديهم وليس للدولة . كما نادي أفلاطون .

وأمــا العبيد فوظيفتهم تحصيل الثروة الضرورية للأسرة والقيام علي خدمتها . ذلك بأن المواطن ؛ أي اليوناني ؛ الحر رجل حبته الدولة ذكاء وشجاعة وله مهام إدارة الدولة وحراستها .

فأرســطوا . لا يستنكر العبودية ؛ بل يجعل فروقا وتمايزاً بين الحــر والعــبد ، فالعبد مجرد آلة . أما النظم السياسية فهي ذات طابع نســبي عــند أرسطو ، فالنظام الدستوري يمكن أن يكون عاماً مطلقاً . ينطــبق علي كل المدن علي السواء . إذ أن الدستور للدولة إنما يخضع لعوامل الزمان . والمكان وحاجات الشعب . وطباعة وعاداته وتقاليده . ويــتحدد شــكل الدستور عن طريق توزيع القوى السياسية بين فئات المدينة ، فيجب أن يتلائم الدستور بين حاجات الطبقات المختلفة ، لأنه لن يكتب له البقاء إلا إذا كان مؤيدوه أقوى من معارضيه ، ولن يتيسر هــذا إلا إذا مــنح الدســتور حقوقاً متساوية للمتساوين ، وحقوقاً غير متساوية لغير المتساوين . حتى يمكن للجميع أداء واجباتهم علي الوجه الأكمــل ، وأرسطو علي هذا لا يربط رأيه في التنظيم السياسي للمدينة بأي مبدأ مثالي خارج عن نطاق التجربة .

ويقول ول ديورانت عن أخلاق أرسطو : إنها فرع من منطقه . والحــياة المثالــثة فــي نظره تشبه قياسه . إنه يقدم لنا كتاباً عن اللياقة

والحشـــمة لا يثـــير فينا باعث الإصلاح في الاعتدال . وقد يصف أحد المتطرفيـــن الأخـــلاق عند أرسطو بأنها ضربت رقماً قياساً في جميع سخافات الأدب وتوافهه . [١]

وذكـــر أن الشـــعب البريطاني قد كفر عن خطاياه الاستعمارية لشعوب العالم مسبقاً ، باعتقاده في أرسطو . وإجباره طلبة التعليم علي قراءة كل كلمة في أخلاق أرسطو . [٢]

الدور الثالث

(الأخلاق الأبيقورية)

كانـــت الفلســـفة اليونانية قبـــل سقراط تعني بالبحث عن أصل العالم ، وما وراء الطبيعة حتى جاء سقراط ، فأنزل الفلسفة من السماء وفـــتح الـــباب واسعاً علي الإنسان والمعرفة أملاً في الخير والصلاح والفضيلة ، وقد استكمل هذا الجانب كلاً من أفلاطون وأرسطو . وكان للدولة أكبر نصيب عند أفلاطون . إذ كان يتعزى عن الآلام التي تصيب الأفـــراد بسعادة الدولة ، وأخذت السياسة منه جانباً كبيراً . يتضح ذلك من خلال كتابه " الجمهورية " وغيره .

وســـار علي نفس الطريق أو قريباً منه " أرسطو " ، الذي كان ميـــتماً بالدولـــة نظراً لما بينه وبين الأسرة الحاكمة المقدونية وبزوال

---

(١) انظـر قصة الفلسفـة : ول ديورانت (صـ ٧٥ ـ ٨٥) ، وأعـلام الفكـر الإنساني (صـ ٨٨ ـ ٩٠) ، وقصة الفلسفة : د / مراد وهبي (٢٨ ـ ٣٠) .

(٢) قصة الفلسفة : ول ديورانت (صـ ١٢٠ ـ ١٢١) .

الاسكندر والإمبراطورية المقدونية ظهرت مدارس متعددة تحاول الأخذ من كل نتاج الفلاسفة ، خاصة سقراط . الذي عني بالأخلاق ، وأرسى المبادئ لها .

ففلاسـفة مـدارس هذا العهد كانوا يعتبرون أن الإنسان ذا قيمة خاصـة ، فيجـب أن تـتوجه البحوث إليه وإلى سيرته بعد أن اكتملت الفلسفة الطبيعية . وفلسفة مـا بعـد الطبيعة ، ومـن هـذه المـدارس " الأبيقورية " .

أبيقور :

ولد في " ساموس " (٣٤١ ق . م) من أسرة أثينية ، وأنشأ بها مدرسة ظل يعلم فيها حتى وفاته (٢٧٠ ق . م) ، ولم تقتصر المدرسة علـي قـبول طلبة الفلسفة فقط ، بل ضمت الأصدقاء والأطفال والعبيد والنسـاء . وكـان لاشتراك المرأة في المدرسة أثره في التشنيع علي المدرسة .

وعـاش " أبيقور " حياة طاهرة شريفة ، لا تتفق مع الفكرة التي ألصقت بإباحية الأبيقورية . وكان " أبيقور " يحظى بحب تلامذته له ، وحدثت مجاعة في أيامه ، فجمع في حديقة صغيرة من كان أفقر منه ، وعاشـوا معاً في مودة إلي أن زالت المجاعة ، ولذلك أثر عنه القول : القليل الضروري يجب أن يكفي لسعادة الحكيم ، بقليل من الخبز والشعير والمـاء ، يمكن أن يكون المرء سيداً . وكان يطبق هذا علي نفسه في عيشته . .

أ – اللذة والفضيلة :

يجعـــل أبـــيقور الإنسان وما فيه من عقل . نقطة بداية ومسار يصل منه إلي مذهبه في الأخلاق ، يقول أنت إنسان ، أي حيوان ذكي عـــاقل . فاستخدم هذا العقل الذي يميزك عن الحيوان في طلب اللذة ، والمفاضـــلة بيـــن اللذات ، والفرار من الألم ، فطلب اللذة والفرار من الألـــم . قـــانون عام للكائنات الحية الحساسة جميعاً ، وتتمثل الأخلاق الأبيقورية في :

١ – خـــذ اللذة التي لا يسبقها ألم ، وبالتالي خيرية العمل الذي يأتي بهذه اللذة .

٢ – فر من الألم الذي لا يجلب أي لذة . والفرار معناه أن هذا العمل يجب ألا يؤتى .

٣ – ارفض اللذة التي تحرمك من لذة أكبر منها أو التي تسبب لـــك ألمـــاً كبيراً ، وهـــذا يعني تفاوت الخير في الأعمال وكذلك الشر أيضاً .

٤ – أقـــبل الألم الذي يخلصك من ألم أكبر . أو الذي يجلب لك لذة أعظم . فالفضيلة علي هذا هي مملكة اختيار الأعمال التي تنتج هذه اللذات .

ومـــن الواضـــح أن مـــن كان همه الأكبر اللذة الجسدية يسعده الوقـــوف بهـــذه القواعد علي غرضه فقط . وهذا هو الجانب الذي اخذ علي أبيقور ودعواه إلي اللذة التي وصفت بالإباحية .

ولكـــن أبـــيقور لا يقــف باللذة عند الجسد فقط بل يفضل اللذة الروحية والعقلية . يقول : المسرات واللذائذ الروحية العقلية أثمن ألف مـــرة مـــن اللذات الجسدية . لان هذه لا تكون إلا لذات حاضرة ، أما الروح أو العقل فينعم بالحاضر والماضي وبالمستقبل أيضاً .

ولكـــن مـــع هذا فإن لسان حال من يوجه فلسفة " أبيقور " إلي الإباحـــية ، يقول : ما عليَّ إذا اكتفيت باللذة الحاضرة ؟ وليس لي من غاية للذة الدائمة .

ب – السعادة وسبيلها :

إذا كانت اللذة هي القانون الأسمى كما يقول : أبيقور . فالفضيلة ليســت مقصودة لذاتها ، بل للسعادة التي تأتي من ورائها ، وللوصول إلي سعادة مطمئنة علينا أن نقلل ما أمكن من رغباتنا . التي تتنوع إلي رغبات ضرورية طبيعية . كالرغبة في الطعام . ورغبات طبيعية وغير ضـــرورية ، كالحب والأسرة ورغبات غير طبيعية وغير ضرورية . كالمال والجاه ، هكذا يرى " أبيقور " ..

فـــإذا كـــنا في حاجة إلي الطبيعة والضرورية فإن غير الطبيعة وغـــير الضرورية يجب أن ننحيها عنا علي أي حال ، فما عاش فقيراً مـــن عاش علي وفاق مع الطبيعة ، وما بلغ الثراء الصحيح من عاش علـــي الأوهـــام والظنون ، ومن هذا كله تتضح النزعة الأخلاقية وهي الرغـــبة فـــي الهدف المطلق ، وعلي الإنسان أن ينجو من الألم بأن لا يجعل له سلطاناً عليه .

٢ – الرواقية والأخلاق :

أسس المذهب " زينون " وهو أسيوي . ولد في قبرص (٣٣٦ ق . م) ، ثم رحل عام (٣٠٢ ق . م) ، وتردد علي مدارسها ، ثم أخذ يعلم تلامذته في بعض أروقة أثينا ، المزدانة بالنقوش والرسوم ، وسميت بالرواقية لذلك .

الأخلاق عندهم :

ترتبط الأخلاق في المذهب الرواقي بالنظرة الفلسفية عندهم للكون ، وأن التوافق مع الطبيعة هو الغاية المطلوبة ، فالعالم عندهم :

١ – **الطبيعة العامة :** وهي خاضعة لقانون عام لا يشذ عن سلطانه شئ ، وليس في أحكامه استثناء ، ولذا علي الإنسان أن يرضي بكل ما يجيئ به القضاء إذ هو جزء من الطبيعة العامة فعليه أن يعيش ويسير وفق هذه الطبيعة . الثاني : أن العقل الإنساني هو أهم جزء في طبيعته ، فتكون الفضيلة هي يقظة هذا العقل وسيطرته علي الجسد وغرائزه ، واحتقار اللذات والمتع الجسمية ، فالمثل الأعلى عندهم تحمل أي تحمل الآلام والشدائد ، وكف عن طلب اللذات .

وإذا كان أرسطو يدعو إلي إخضاع السلوك للعقل فإنه لم يطلب الكف عن الشهوات ومحاربتها ، بل طلب أن تكون محكومة ومضبوطة بالعقل . فإن الرواقين ينادون في جانب بأن الإنسان جزء من قانون الطبيعة العام . وعليه أن يرضى ويتوافق مع هذا القانون . فهي دعوة إلي الجبرية المطلقة في بيان الصلة بين الإنسان والكون ولكنهم حين

نظروا إلي الإنسان لم يربطوا بينه وبين ما فيه من غرائز ونوازع وأن يستجيب لها ، ويتوافق معها . فطالبوا بالكف عن الشهوات والحرمان منها ، وهذا لا يؤدي إلي التوسط والاعتدال في قوى الإنسان ، بل إلي الاختلال ، وينتهي إلى رفض الحياة ، حتى إن " زينون " توفي منتحراً ، وأوصى غيره بالانتحار للتخلص من الآلام .

نزعتهم الإنسانية :

يرى الرواقيون . أن الناس جميعاً أسرة واحدة . وكل إنسان عضو في المجتمع بما فيه من قوة عاقلة مشتركة بين الناس جميعاً . وأنه لهذا الأصل المشترك يجب أن يتحد الناس ويتحابوا ، وأن يزيلوا ما بينهم من فوارق طبقية وعرقية ، ومكانية ، وأن يتمتع الجميع بالحق الطبيعي ما داموا يتمتعون بالعقل الإنساني الذي هو الجزء السامي في الطبيعة الإنسانية .[١]

٣ – الأفلاطونية الحديثة :

يعتبر " أفلوطين " المصري . الذي ولد في لقويوليس (أسيوط) (٢٠٥ – ٢٧٠ م) الممثل لهذا المذهب .

وقد تأثر بفلسفة " أفلاطون ، وأرسطو " وبتعاليم الشرق القديم ، وخاصة الزرادشتية .

---

(١) انظر في الفلسفة : د / السعيد طه (صـ ١٣٦) ، وانظر : تاريخ الأخلاق : محمد يوسف موسى (صـ ١١٩ – ١٢٠) . ودراسات في فلسفة الأخلاق : د / محمد عبد الستار نصار (صـ ٣٣٧ – ٣٤٤) .

الفيض الأفلوطوني والأخلاقي :

يري " أفلوطين " أن جميع الموجودات صدرت عن الله بطريق الانبــثاق . ويشبه ذلك بالنور الذي يفيض عن الشمس ، والحرارة التي تفيض عن النار من غير أن ينقص الشمس والنار شيئاً .

فكذلك النفوس فاضت عن الله هكذا . وإذا كانت النفوس فاضت عن الله فهــي فــي شوق دائم وميل إلي الاتصال به ثانية وتحقيق هذا الاتصال طــريقه الإمعان في التأمل والتفكير ، وحتى يغيب الإنسان عن الوجود الــذي يســميه الجذب ، والتأمل هو الفضيلة ، التي لها القيمة الحقة ، وبالتالــي جعل السعادة فيما سواها جعلها في أشياء غريبة عن الفضيلة مــثل العمــل وغيره ، أما أمهات الفضائل المعروفة وهي : الحكمة . والشجاعة . والعفة . والاعتدال . فليس لها من قيمة إلا تطهير الروح . بإبعادها عن الشر ، وانجلائها من الإثم ، وهذه الفضائل : تزكي العقل وتســاعده علي الاستغراق في التأمل والتفكير ، حتى يصير المرء أهلاً لأن تهــب علــيه نسمة من رحمة الله وفيضه . فيصل إلي الانجذاب . الــذي يجعل من المحب والمحبوب على قولهم . شيئاً واحداً بانصراف المحــب عــن ذاته . حتى لا يشاهد إلا الله ، وهذا الانجذاب هو الخير الأعلــي ، والسعادة القصوى . وهي لا تدوم إلا لحظات ، ولكنها تملأ النفس سعادة لا يعرفها إلا من ذاقها عن هذا الاتصال . الذي لا يحدث إلا مــرات ، وقد تأثر الفكر الفلسفي في الإسلام ، بأفلوطين ، في قوله بالفيض . وانبثاق الموجودات ، كما تأثر التصوف في مذهبه بالاتصال

والجذب ، الذي يؤدي إلي الحلول كما كان لها تأثير في الفكر المسيحي أيضا .

– القرون الوسطى :

يـــراد بالقـــرون الوسطي المدة الزمنية من أواخر القرن الرابع المـــيلادي حتى عام ١٤٥٣ م الذي تم فيه فتح القسطنطينية ، علي يد الأتراك وتلك المدة التي نحن بصددها تمثل انتشار المسيحية وظهورها في القارة الأوربية ، وبالتالي فإن الأخلاق في تلك القرون طابعها العام الـــروح المســـيحية ، والكتاب المقدس عند النصارى ، ووصايا المسيح والحوارييـــن وآبـــاء الكنيسة ، كل ذلك يمثل الأساس المقدس والملزم للأخلاق سواء فيما عرف بعصر آباء الكنيسة أو العصر المدرسي .

وفي هذا العصر كله . عملت الكنيسة علي تثبيت سلطانها ، وأن تـــنفرد بالمعـــرفة ، وعلي أن يكون الكتاب المقدس عندهم هو المرجع الوحـــيد فـــي الأخلاق وغير الأخلاق من أوجه المعارف ، وأن يوجه الفكـــر الفلسفي يوظف لتأييد الدين وما في الكتاب المقدس ، وأن توفق بينهما وبين الدين وتتوافق معه ، فالدين فوق الشك والنقاش .

أ – خصائص مميزة :

تتمـــيز الأخلاق في القرون الوسطي المسيحية عن الأخلاق في الفكر الفلسفي اليوناني بخصائص منها : ...

١) أنهـــا تـــتجه إلي القلوب والمشاعر معتمدة علي الوحي في معرفة الخير والشر ، أكثر من اعتمادها علي العقل والتفكير .

٢) أنها تتجه إلي جميع أفراد الأمة ، وليس لطبقة دون طبقة .

وأن علــي الجمــيع أن يضع نصب عينيه ما حث عليه الدين ، فيعتبره خيراً ، وما نهي عنه يعده شراً ، من خلال ذلك تتضح سمات الأخلاق وموضوعاتها . واتجاهها لإصلاح الفرد والمجتمع . وتتناول الحث علي الخير والإكثار منه ، والتنفير من الشر وعدم إتيانه .

الحث علي الخير :

تحفل الوصايا والمواعظ الدينية بصنوف الخير للفرد والمجتمع مــثل : الحث علي التواضع . مقابلة السيئة بالحسنة . حب الناس حتى ولــو كــانوا أعــداء . وقد أثر عن المسيحية القول : أحبوا أعدائكم . أحسنوا إلي مبغضيكم . اغفروا يغفر لكم . وكما تريدون أن يفعل الناس لكــم فــافعلوا أيضاً بهم ، وإذا لطمك أخوك علي خدك الأيمن فأدر له خــدك الأيســر ، وأعطــوا ما لله لله ، وما لقيصر لقيصــر . البذل . الإحسان . التعاون ... ، وغير ذلك من أعمال الخير والبر .

التنفير من الشر :

يتمثل ذلك في النهي عن القتل . السرقة . الزنا . الربا . شهادة الزور . البخل . وكنز المال . حب الدنيا . لأنها تصد عن حب الله . .

ب – الخير الأعلى :

رأينا أن الفلاسفة منذ " سقراط " إلي " الرواقيين " كانوا يوحدون بين العادة والفضيلة ، فعند سقراط ، وأفلاطون ، وأرسطو ، وزينون : السعادة ثمرة الفضيلة ، فمن ملك الفضيلة يجني السعادة . وعند " أبيقور

" أن الفضيلة ثمرة اللذة والسعادة ، أما عند الأخلاقيين المسيحيين ؛ فكان لهم فهم خاص للفضيلة وللخير الأعلى ، فالفضيلة بإطلاق هي الإحسان ، والإحسان هو حب الله ، وحب الإنسان لأجل الله وفي سبيله .

والسعادة : هي أن يحب المرء الله ، وأن يكون محبوباً من الله ، والخير الأعلى . الذي وسيلته الإحسان ، وحب الله . لا يتحقق في هذه الدنيا الضيقة الفانية ، بل يكون في الدار الآخرة الباقية التي أعد الله فيها لمن أحسن وأحب الله ولله . النعيم المقيم والسعادة الباقية ..

جـ – صبغ الأخلاق بالفلسفة :

حاول رجال الدين في العصر المدرسي صبغ الأخلاق المسيحية بالصبغة الفلسفية ويتمثل ذلك في القديس " توماس الإكويني " (١٢٢٥ – ١٢٧٤ م) ، وكان داعيا إلي فلسفة " أرسطو " ، وسن أكبر رجال الدين في الكنيسة الغربية ، كان " توماس " رغم تقديره للفلسفة وجدواها ؛ إلا أنها لا تغني عن الدين والوحي ، فالإنسان في حاجة ماسة إلي تعليم سماوي من الله ؛ مع وجود التعاليم الفلسفية التي يصل إليها العقل البشري بنوره الخاص .

الأخلاق عند توماس :

مزج توماس الأخلاق المسيحية بما ذهب إليه أرسطو ، فكان يرى أن العفة والشجاعة والعدالة فضائل في مقدور الإنسان كسبها ، وهي تؤدي إلي نوع من السعادة ، هو السعادة الطبيعية .

أمـــا النوع الآخر من السعادة فهو السعادة القصوى ، وهو فوق السعادة الطبيعية ، وهي التي تكون متي كان للمرء ثلاث فضائل أخرى تـــرجع إلــــي الدين ، وهي : " الإيمان والإحسان للناس في سبيل الله وحـــده ، والأمل في الحياة ، والآخرة التي ينال الإنسان فيها حظه من الثواب .

السعادة :

اهـــتم " توماس الإكويني " بمسألة السعادة ، فخصص لها قدراً كبـــيراً مـــن كتابه المسمي " الخلاصة اللاهوتية " ، وقد انتهي من هذه الدراســـة إلي أن السعادة لا تقوم بالخيرات الخارجية ، كالغني والمجد والجـــاه والسلطان ... وغير ذلك . لأن السعادة هي الخير الأعظم ومن حنقـــها أن تكون هي الغاية لا أن تكون وسيلة لشيء بعدها ، وكل هذه الخيرات لا تتحقق فيها هذه الخاصة إذ يوجد غيرها . خيرات أخري لها قيمـــتها وقدرها ، كالحكمة والعافية ، وكذلك السعادة ليست في خيرات البدن كالعافية والصحة أو خيرات النفس من الفضيلة والمعرفة .

لأن السعادة وإن كانت شيئاً حاصلاً في النفس ؛ إلا أن ما تقوم بـــه هـــو شيء خارج عنها ، فالسعادة يجب أن تقوم بأشرف قوة في الإنســـان ، وهـــي العقل وأخص عمل تلك القوة أي العقل . النظر في الإلهـــيات وثانـــياً . هـــذا النظر يشترك فيه الإنسان مع الملائكة بهذه السعادة شبيهاً بهم .

ولهذا كانت السعادة القصوى المرجوة في الحياة الآخرة ، ترجع إلي التأمل والتفكير وإدراك المعلومات الحقة .

وعلي هذا فلن يحصل الإنسان علي السعادة الكاملة في هذه الحياة .

ذلك بأن السعادة باعتبارها . الخير الكامل تنفي كل شرور ، وترضي كل شوق ، وهذا غير ممكن في الدنيا ، لكثرة ما فيها من شرور وآلام التي لا يسلم منها أحد ولأن خيراتها زائلة ، فيظل الإنسان متطلعاً إلي خير دائم لا يزول عنه ولا يتحقق ذلك في الدنيا . ولأن ما تقوم به السعادة بوجه خاص . هو رؤية الله ، واتصال العقل به ، وهذا متعذر في الدنيا .

وأخيراً يتضح من كل ما تقدم تأثر " توماس " الذي يعتبر بحق ممثل الأخلاق الدينية الفلسفية في العصر المدرسي بالفلسفة وبخاصة فلسفة " أرسطو " ، وكيف حاول تعليل التعاليم الدينية تعليلاً فلسفياً ، وأضفي عليها الطابع الفلسفي . [١] مما جعل الطريقة التي عالج بها المشاكل الأخلاقية فريدة في نوعيها بين أبحاث الفلاسفة المدرسيين .

---

(١) انظر في الفلسفة : د / السعيد طه (صـ ١٦٨) ، وانظر تاريخ الأخلاق (صـ ١٥٦ ، ١٥٧) ، ودراسات في فلسفة الأخلاق : د / محمد عبد الستار نصار (صـ ٣٤٩ ـ ٣٥٥) .

الفصل الرابع

﴿ الأخلاق في الإسلام ﴾

تمهيـــد :

لو قلبنا صحائف التاريخ والأدب للعرب قبل الإسلام لوجدنا أن العرب نبغ فيهم حكماء وشعراء وأدباء وكان لهم معرفة وإلمام بمكارم الأخلاق ، ويدعون إليها ويدركون الرذائل وينفرون منها ، شأنهم شأن الأمـم جمـيعاً ، بـل يبدوا جلياً تفوق العرب قبل الإسلام في جوانب أخلاقـية لهـم فيها تفوق علي ما سواهم من الأمم ، وهذا لا يعني أنهم كـانوا خلوا من الرذائل ، بل إنهم أيضاً ربما كانوا علي نفس القدر في بعـض الـرذائل ، والحكـم علي العرب بمقاييس الأخلاق المعاصرة الحديثة وأيضاً عند الغرب .

يجافي الصواب من وجوه :

١) إنـه مـن المهم في جانب المعرفة عامة ومنها الأخلاق . الـنظر إلـيها علـي ما كانت عليه عند آية جماعة وهل قامت بدورها ووظيفـتها أم لا ، وهـذا هو المنهج المرتضى عند علماء الاجتماع ، والحكم عليها لا علي نحو ما ثبت في التراث الغربي ، فحسب ، وإنما علي نحو ما تجلت في الفكر الإنساني بأسره .

٢) أن العـرب قـبل الإسلام يمثلون حلقة من حلقات التاريخ والبشرية ولهم بلا شك دور قاموا به ، والحكم عليهم من خلال وجودهم وآدائهـم لدورهم يجب أن ينظر إليه بقدره ، فيحكم عليهم من خلال ما

ورثوه وأخذوه ، وهل أضافوا أم ضيعوا ، أما أن يحكم عليهم بآخر ما وصـل إلـيه البشر من معارف ومقاييس فهذا لا شك تجني وبعد عن الصواب ، وهذا ما يجب عند تناول الأخلاق عند العرب وغيرهم

وقـد استقر في البحث الأخلاقي قبل العصر الحديث في البحث والتناول والحكم طريقان :

أحدهما : يتجه إلي التأمل الباطني . والبحث في النفس لمعرفة ما فيها من دوافع وقوي وتوجيه ذلك إلي الصواب والنفع .

الآخـر : الاهـتمام بالظواهر الإنسانية ووصف السلوك بما هو علـيه ومحاولـة تثبيت المنافع وتغيير الضار بمنهج تربوي قائم علي المعرفة ونتائج تجارب وتطبيق .

وإذا كان العرب قديماً لم يتجهوا كلية إلي التأمل الباطني . فإنهم قـد أوفـوا فـي جانب الظواهر الإنسانية ، ومنها : الأخلاق . فعرفوا المحمـود مـنها والمذمـوم . وتحدثوا عن فطرية الأخلاق وكسبيتها . والبواعث والغاية ، ونذكر نماذج شاهدة .

١ – الدعوة إلي الخلق الحسن :

يقول " طرفة بن العبد " :

خالط الناس بخلق واسع *** لا تكن كلباً علي الناس يهر

وينشد قيس بن الخطيم :

فما المال والأخلاق إلا معارة *** فما استطعت من معروفها فتزود

ويقول حكيم العرب : أكثم بن صيفي :

ذللوا أخلاقكـــــــــــــــم للمطالب .

وقودوها إلي المحامـــــــــــــــــــد .

وعلموها المكـــــــــــــــــــــارم

ولا تقيموا علي خلق تذمونه من غيركم

وقد تزوجت إحدى ملكات سبأ . برجل وصف نفسه فقال :

(أنا شماس بن عباس . معروف بالندى والباس . حسن الخلق في سجية . والعدل في قضية . مالي غير محظور علي القل والكثر . وبابي غير محجوب علي العسر واليسر .)

وقد رفضت قبله رجلان أحدهما : ذو مال ، ولكن طبعه غالب عليه الشدة والشراسة ، والثاني : لا يتمتع بخلق وافر . .[1]

وتلك الأخلاق والمكارم فيها من الخير يقدر ما فيها من نفع ليس للفرد في نفسه ودائرته ، ولكن أغلبها ينصب علي دائرة الغير وهي تتسع ، ولا تحد ، ولو نظرنا للقول : حسن الخلق في سجية . وما سبق من تعريف الخلق ؛ بأنه حالة للإنسان تصدر عنه الأفعال دون فكر وروية ؛ أي أنه أصبح سجية ، وهنا تكلم عن هذه السجية ؛ بل أنها عرفت عنه من الناس ، ويشهد لها المال ، والباب من الخشب ، إذ وظف وسخر لهذا .

---

[1] انظر الحكمة العربية : د / عبد الله الشاذلي (صـ ٤٠٢ ـ ٤٠٥) .

٢ – الدعوة إلي الخير والنهي عن الشر :

" يقول المرقش الأصغر " :

وما أدري إذا يممت وجها *** أريـــد الخير أيهما يليني

ألخير الذي أنا أبتغيـــــه *** أم الشر الذي هو يبتغيني

ويقول " زهير " في مدح هرم بن سنان فيصفه بأنه كان محجوباً عن الفواحش سافراً في الخيرات :

والستر دون الفاحشات وما *** يلقاك دون الخير من ستر

ويقول السموءل اليهودي :

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه *** فكل رداء يرتديه جميـــل

ويقول هذيل بن ميسر الفزاري :

فإن لا يكن جسمي طويلاً فإنني *** بالخصال الصالحات وصول

ولــم أر كالمعروف أما مذاقه *** فحلـــــو أما وجهه فجميل

والمذاق هو معروف الباطن حسا وعاطفة ، كذلك الوجه فجماله يبصر بالعين وتطمئن إليه النفس وتسعد .

يقول ابن عباس – رضي الله عنهما – : ثلاثة أخلاق كانت في الجاهلـــية مســـتحبة والمسلمون أولى بها : " إكرام الضيف ، وإمساك المرأة عند الكبر لا تطلق حتى لا تضيع ، وإعانة الجار عند الشدائد " .

وقـــال رســـول الله ﷺ عن حلف الفضول الذي حضره وهو صـــغير الســـن . وقد تحالف نفر من العرب ألا يجدوا صاحب حق إلا وقفوا معه ، حتى يسترد حقه ، وأن يقفوا مع المظلوم ضد الظالم .

يقول رسول الله ﷺ " لو دعيت إلي مثله في الإسلام لأجبت " .

وقد ذكر الإمام السيوطي قول الباجي عن أصل مكارم الأخلاق عند العرب ومستواها ، قال :

" كانـــت العرب أحسن الناس أخلاقاً بما بقي عندهم من شريعة إبراهيم عليه السلام في الفضل والمروءة والإحسان والعدل .

وذكر " جورجي زيدان " العرب فقال :

" علـــي أن العـــرب قلمـــا كانوا يحتاجون إلي حاكم يفصل في الخصـــومة بينهم لما فطروا عليه من المناقب الجميلة ، التي تقوم فيهم مقـــام الحـــاكم الصارم ، وتنزههم عن ارتكاب الدنايا ، مما يغنيهم عن القضاء .

وســـيد هذه المناقب " الوفاء " لأنه إذا تأصل في أمة أغناها عن القضاء والحكومة ، إنما تقضي بين الذين لا يعرفون الوفاء . (١)

ولعلنا نكون قد ألمعنا إلي الأخلاق ومكانتها عند العرب وكانت رســـالة الإســـلام تمـــام مكـــارم الأخلاق لهذه الأمة لكي تقود البشرية وتخرجها من الظلمات إلي النور ، بهدي الله وصراطه المستقيم .

---

(١) انظر الحكمة العربية : د / عبد الله الشاذلي (صـ ٤٠٢ – ٤١٠) . ودراسات في فلسفة الأخلاق : د / محمد نصار (صـ ٣٠٩ ، ٣٦٠) .

الأخلاق في الإسلام :

جاءت الرسالات والنبوات لبني الإنسان لكي تأخذ بقلبه ووجدانه ومشـــاعره وعقله إلي أقوم منهج وأسلم صراط في جانب المعتقد وفي جانـــب السـلوك والــتعامل والأخلاق ، لكي يسعد الإنسان ، والأسرة والمجــتمع والبشرية ليس في الدنيا فقط وفي الآخرة أيضاً ، وختام هذا الكمال في الإسلام ، يقول الله ﷻ **﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثي وهــو مؤمـــن فلنحيينه حياةً طيبةً ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾**

ويقــول الله – سبحانه وتعالي – **﴿ فإما يأتينكم مني هديً فمن تــبع هــداي فــلا يضل ولا يشقى * ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشةً ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ... ﴾** (١)

وقــد بين القرآن الكريم ، وفصل بأساليب ومناهج بين الترغيب والترهيــب والحكمـــة والموعظـــة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن . مستنهضـــاً المشاعر والإرادة والهمم والعقول والنظر وقص من أخبار الأمم ما فيه تفصيل ودروس وعبر ، وكيف نال من أعرض ونأى عن الحق وداعيه وشوق الفطرة القويمة . علي المشاعر والضمائر ومكارم الأخلاق .

كمـــا أن الرسول ﷺ كان قرآناً يمشي بين الناس ، تعاملاً ومثلاً تطبيقياً حياً إذ كان خلقه القرآن . كما أن الصحابة لم يكونوا يتجاوزون

---

(١) سورة طه : (١٣٢ – ١٣٣) .

العشر آيات من القرآن حتى يحفظوها ويعلموا ما فيها ويعملوا بما فيها فاستجمعوا القرآن حفظاً وعلماً وعملاً .

ونستطيع القول أن مصادر الأخلاق الإسلامية والمباحث فيها هي :

١ – القرآن الكريم وما فيه من مكارم حض عليها وما نهى عنه من رذائل .

٢ – الرسول ﷺ وما أثر عنه من قول أو فعل (أي السنة) .

٣ – مصدر آخر موروث قبل الإسلام وهي مكارم الأخلاق وما كان عند العرب منها ، وأيضاً ما نفروا منه سواء كان ذلك مطلب الفطرة السليمة ، أو آثار النبوات السابقة التي توافق وتعانق تلك الفطرة .

٤ – ما عرف عن الأمم السابقة التي دخلت الإسلام أو ما ترجم عن غير ذلك كاليونان وغيرهم .

٥ – من عنوا بالبحث والكتابة في الأخلاق وهؤلاء إما أنهم لم تكن لهم نزعات وتأثر غير إسلامي فأبحاثهم سادتها النزعة الدينية الخالصة ، فهم يصدرون عن القرآن والسنة مثل : أبي الحسن البصري والماوردي المتوفى عام ٤٥٠ هـ ، في كتابه أدب الدين والدنيا .

٦ – مــن ســادته الــنزعة الدينية والصوفية ، والنظر الفلسفي ... كالغزالي .

٧ – طائفــة عرفوا بأنهم فلاسفة . كالكندي والفارابي وابن طفيل . وابن رشد ، في المشرق الإسلامي ومغربه .[١]

وهــؤلاء أقــاموا مذاهــبهم فــي الأخلاق . علــي أساس من الفلســفة التي تأثروا فيها باليونان . معلنين ذلك غير منكرين أو غــير الــيونان ، كالفرس والهند ، وهــم الذين نعرض لهم في تناولنا هنا ...

١ – الكندي (١٨٥ – ٢٥٢ هـ) :

أ – **أبــو يوســف يعقوب بن إسحاق الكندي** . فيلسوف العرب ،وأحد أبــناء ملوكها ، جده الخامس الأشعث بن قيس . ملك كنده ، وكان أبوه أمــيراً علــي الكوفة ، في خلافة المهدي والرشيد وكان عالماً باللغتين الفارســية واليونانية ، وترجم منها وأصلح تراجم للآخرين ، وكان لهذا أثــره فــي فكره وتأليفه وبحثه في العلوم العقلية . وقد حاول جاهداً أن يوفق بين كل من أفلاطون ، وأرسطو كما كان يعتقد أن الدين والفلسفة كليهما حق ، أو أنهما يخرجان من مشكاة واحدة ، وأن الحق لا يتجزأ ، وأن كلا مــن الحكيمين قد أصاب الحق ، أي أفلاطون ، وأرسطو .

وقد ألف كتباً ورسائل في الأخلاق متابعاً فيها سقراط وغيره ، منها :

---

(١) **انظر الأخلاق بين الفلسفة وعلم الاجتماع : د / السيد محمد بدوي (صـ ٦٥ ـ ٧٠) ، وانظر جواهر القرآن للإمام الغزالي (صـ ٦ ـ ٩) .**

١ – رسالة في خير فضيلة سقراط .

٢ – رسالة في خبر موت سقراط .

٣ – رسالة في الأخلاق .

٤ – رسالة في التنبيه علي الفضائل .

٥ – رسالة في تسهيل سبل الفضائل .

٦ – رسالة في النفس وأبعادها .

ب – الأخلاق عند الكندي :

رغم هذه المؤلفات إلا أن ما يعرف عن الكندي في الأخلاق محدود ويؤخذ من فلسفته في النفس ، فهو يري أن النفس الإنسانية جوهر أزلي خالد . هبط للجسم بعد أن صار صالحاً لقبوله ، وهي لهذا تشعر أنها غير مستقرة في مقامها ، وتحن إلي مفارقة الجسم ، لتعود إلي أصلها الذي جاءت منه حتى تتمتع بالسعادة الروحية الكاملة ثانية ، بعد العلم الذي لابد أن تأخذ منه بأوفر نصيب ، وهو سلوك الفضيلة والبعد عن الرذيلة ، وذلك يكون باتباع ما أمر الله به ، والانتهاء عما نهي عنه ، فتكون بذلك أهلاً لرحمة الله وفيضه ، وتصل إلي النعيم الروحي الدائم .

ومن خلال ما سبق يظهر تأثر الكندي بسقراط والرواقيين ، وغيرهم ممن عرضنا لهم ، وخاصة في مسألة النفس ووجودها السابق وتشوقها للرجوع إلي سابق عهدها ...

٢ – الفارابي (٢٥٩ – ٣٣٩ هـ) :

أ – هو أبو نصر محمد بن محمد بن أوزلغ بن طرخان ، الفارابي نسبة إلي فاراب ، بين حدود فارس وتركيا ، وقد ولي أبوه قيادة جيش . وقد تعلم الفارابي العلوم والرياضة والفلسفة والآداب واللغات ، التركية والفارسية واليونانية ، وطبقت شهرته الآفاق في الفلسفة ، ولقب بالمعلم الثاني ، أي خليفة " أرسطو " ، كما اشتهر في شئون السياسة والاجتماع ، وحاول الجمع بين رأي الحكيمين " أفلاطون ، وأرسطو " ، ووضع أساساً لمدينة سماها : آراء أهل المدينة الفاضلة . وله في الأخلاق : –

١ – كتاب تحصيل السعادة .

٢ – التنبيه علي سبل السعادة .

٣ – الدعاوى القلبية .

٤ – فصوص الحكم .

ب – الخير والسعادة :

تابع الفارابي أرسطو في القول بأن الخير والشر مردهما إلي العقل ، أي أن العقل يستطيع أن يعرف الخير والشر ، كما تأثر بسقراط في جعله المعرفة رأس الفضائل ، وأسمي أنواع الخير . والسعادة العظمى هي التي تطلب لذاتها لا لشيء آخر ، وذلك بأن تتحرر النفس من قيود المادة وأغلالها فتصير عقلاً كاملاً ..

أما كيف يصل الإنسان إلي هذه السعادة ؟ فهو يرى أن الأفعال بعضها :

١ – أفعـــال إرادية فكرية ترمي إلي معرفة علوم الفلاسفة فهي عنده حكمة .

٢ – أفعـــال بدنية محددة ومقدرة ، تحصل عن هيئة ما وملكات محددة أيضاً .

والأفعـــال الإراديـــة التـــي تنفع في بلوغ السعادة . هي الأفعال الجمـــيلة ، والهيـــئات والملكـــات التي تصدر عنها هذه الأفعال . هي الفضائل ، وهذه هي خيرات لا لأجل ذواتها ، بل إنما هي خيرات لأجل السعادة ، والأفعال التي تعوق عن السعادة هي الشرور ، وهي الأفعال القبـــيحة ، والهيـــئات والملكـــات التي تصدر عنهما هذه الأفعال ، هي الـــنقائص والـــرذائل ، فهـــو يري أن رياضة النفس بفعل الخير وترك الشر ، وأن الوصول لذلك يكون عن طريق العلم والمعرفة ، فهو جمع بين العلم والعمل .

٣ – ابن مسكويه (توفي عام ٤٣١ هـــ) :

أبو علي أحمد بن محمد بن مسكويه ..

أ – **عاش في ظل الدولة البويهية** . ومولده فـــي مدينة " الري" ، وتوفي بأصفهان ، وله تصانيف كثيرة في العلوم المختلفة ، توفر علي الأخلاق واهتم بها ، ومن مؤلفاته :

١ – كتاب أنس النريد .

٢ – كتاب تجارب الأمم في التاريخ .

٣ – كتاب الفوز الأكبر .

٤ – كتاب الفوز الأصغر .

٥ – مجموعة من الحكم .

٦ – كتاب تهذيب الأخلاق .

وهـو مـن كتـبه إلهامه في مجال فلسفة الأخلاق ، وقال عن غرضـه من تأليفه " غرضنا في هذا الكتاب : أن نحصل لأنفسنا خلقاً تصـدر عنا به الأفعال كلها جميلة ، وتكون مع ذلك سهلة علينا لا كلفة فيها ولا مشقة ، ويكون ذلك بصناعة ، وعلي ترتيب تعليمي ، والطريق في ذلك أن نعرف . أولاً نفوسنا ، ما هي ؟ وأي شئ هي ؟ ولأي شئ أوجـدت فينا ؟ ، أعني كمالها وغايتها ، وما قواها وملكاتها ، الذي إذا استعملناها علـي ما ينبغي ، بلغنا بها هذه الرتبة العالية ، وما الأشياء العائقـة لنا عنها ، وما الذي يزكيها فتفلح ، وما الذي يدنسها فتخيب ، فـإن الله عز من قائل يقول : ﴿ **ونفس وما سواها * فألهما فجورها وتقواها * قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها ...** ﴾ (١)

وقد ذكر كل من ياقوت في كتابه " معجم الأدباء " ، وأبو حيان في كتابه " المقايسات " ، وما عاهد عليه ابن مسكويه نفسه وربه يقول

---

(١) الشمس (٧ – ١٠) ، وانظر مقدمة تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق : كابن مسكويه ، دار الكتب العلمية – بيروت (صـ ٣) .

بعـــد الـــتقديم لهـــذا العهد " عاهده علي أن يجاهد نفسه ويتفقد أمره ما استطاع ، فيعف ويشجع ، ويحكم .

وعلامة عفته أن يقتصد في مآرب بدنه ... وعلامة شجاعته أن يحـــارب دواعـــي نفســـه الذميمة ... وعلامة حكمته أن يستبصر في اعتقاداته ، لكي يحصل له من هذه المجاهدة ثمرتها التي هي العدالة ثم إذا تحقـــق له ذلـــك وأصلح نفسه لم يبخل علي غيره بنصيحة ... حتى يصير من أولياء الله الفائزين ...

وقـــد وضع تذكرة تمسك بها واجتهد في القيام والعمل بموجبها وهي خمسة عشر باباً نذكر منها :

١ – إيـــثار الخـــير علي الشر في الأفعال . والحق علي الباطل في الاعتقادات . والصدق علي الكذب في الأقوال .

٢ – التمسك بالشريعة ولزوم وظائفها .

٣ – محبة الجميل لأنه جميل لا لغير ذلك .

٤ – الأقدام علي ما كان صواباً .

٥ – ترك الخوف من الموت والفقر بعمل ما ينبغي وترك الدنيئة .

٦ – حسن احتمال الغني والفقر .

٧ – قوة الأمل وحسن الرجاء والثقة بالله وصرف جميع البال إليه ، ومـــن الواضع تأثره باليونان ، وقولهم في النفس وقواها وأيضا التزامه بالشريعة الإسلامية .

ب – النفس والفضائل :

تأثـر ابـــن مسكويه بما ذهب إليه أفلاطون في النفس وقواها وهي :

١ – القــوة الناطقة ، وحكمتها أو فضيلتها . الحكمة وهي وسط بين السفة من جهة والبله من جهة أخرى .

٢ – القــوة الغضـــبية ، وتسمي السبعية ، وآلتها القلب ، وفضيلتها الشـــجاعة ، وهـــي وسط بين الجبن من جهة والتهور من جهة أخرى .

٣ – القوة الشهوية ، ويسميها البهيمية ، وآلتها الكبد ، وفضيلتها العفة ، وهـــي وسط بين الشره من جهة والخمود من جهة أخرى .

٤ – فضـــيلة العدالة ، وهي في حالة اعتدال هذه الفضائل الثلاث . الحكمـــة . الشـــجاعة . والعفة .. تحدث الفضيلة الرابعة وهي العدل .

والإنســـان عند ابن مسكويه . مدني بالطبع ، ولا يمكنه تحقيق الفضائل والوصول إلي السعادة وهو وحيد بعيد عن الناس .

ج – الأخلاق والاجتماع :

قول ابن مسكويه . إن الإنسان مدني بطبعه . لا يمكن أن يصل إلي الفضائل وهـو بعيد عن الاجتماع ، هي نظرة ودعوة إلي معايشة الناس .

ولـذا فهو ينتقد العزلة ودعوى الزهد ، فالزاهد عنده جائر علي غيره ، إذ هو يعتمد علي الناس في تلبية حاجاته الضرورية ، في الوقت الذي لا يقدم شيئاً مقابل ما يأخذ ، وهذا عدوان وجور .

ويرى ابن مسكويه : أن شعائر الدين . تدعو إلي تقوية النزعة الاجتماعـية فصـلاة الجماعة أفضل من صلاة الفرد ، وكذلك صلاة الجمعة والعيدين ..

والحـج يجمـع بين مسلمين من أنحاء الأرض . كما أن الدين يدعو إلي محبة الجار والناس ، وكما سبق فإنه في الوقت الذي تأثر فيه بالفلاسفة فإنه وفق ومزج بين الفلسفة والدين ، وكان أثره في الأخلاق بارزاً . (١)

٤ – ابن ماجه (توفي ٥٣٣ هـ) :

أبـو بكر محمد بن يحي الصائغ المعروف بابن ماجه ، ومعناها الفضـة بلغة الفرنجة ، ولد في سر قسطة ، واستوزره والي غرناطة . ثم والي : سر قسطة .

---

(١) انظر أعلام الفكر : محمد عاطف العراقي (صـ ٢٧٣ ـ ٢٨١) .

كـــان متمـــيزاً فـــي العربية ، حافظاً للقرآن الكريم ، ونبغ في الطـــب . والموســـيقي ، والفلســـفة .. له مؤلفات تمثل شروحاً لكتب أرسطو ، كالنفس النزوعية ، والغاية النفسية ، كما أن له شروحاً لغيره مـــن الفلاسفة .

وأهم كتبه التي تكشف عن اتجاهه . كتاب : تدبير المتوحد .

أ – بواعث الأفعال :

تتـــنوع الأفعـــال عند ابن باجه ، تبعاً للبواعث التي تبعث عليها والأغراض التي تفعل لأجلها .

١ – أفعـــال بهيمية بحتة ، مثل كسر الإنسان ، وهو في طريقة عوداً خدشه ، أو سبب له أذى ، فيسرع بكسره ..

٢ – أفعـــال إنســـانية . إذا كسر هذا العود عن روية وإبـــعاده عن الطريق حتى لا يؤذى غيره .

٣ – أفعـــال بهيمية بالذات إنسانية بالغرض ، وهو الفعل الذي يتحقق به غرض لم يقصده فاعله ، كمن يأكل شيئاً لأنه يشتهيه ، فيتفق أن ينتفع به .

٤ – أفعـــال إنســـانية بـــالذات بهمية بالغرض . مثل الذي يأكل شيئاً للإنتفاع به فيتفق أن يكون شهياً لذيذاً عنده .

٥ – أفعـــال . إلهية من باب التشبيه والتجوز ، وهو الفعل الذي يقدم علـــيه . صـــاحبه . لأجل الرأي والصواب ، ولا يلتفت إلي ما

يحدث في النفس البهيمية ، ففعل هذا أولي أن يكون . إلهياً أولي من أن يكون إنسانياً .

ولكـــي يصـــل المـــرء إلي هذه الدرجة من الكمال في بواعثه ومقاصـــده . يجـــب عليه أن تكتمل نفسه أولاً بالفضيلة ، حتى تساعد الحيوانية ، نفسه العاقلة ، بدل أن تكون عائقاً لها ، إذ أن النزوع للمادة وشـــهوات الجسم ، لا يمكن أن يصل الإنسان بهما للسعادة العليا . لأن الوصـــول إليها لا يكون إلا للإنسان الروحاني حقيقة الذي يحاول جهدة أن يكون إلهيا . بأن يعمل ما يعمل للحق والخير . لا لغرض آخر ..

وعلـــي أن ذلـــك لا يعني عند ابن ماجة إهمال الجسد ، فرعاية الجسد مطلوبة ، وقد تكون واجبة إذا تطلب الأمر التضحية بالنفس في سبيل الوطن والدين .

ب – انفراد المتوحد والسعادة :

يـــرى ابـــن باجه ضرورة الفرد المتوحد ، حتى لا يدنس نفسه بمخالطة الماديين الذين لا هم لهم إلا مع الحياة ولذائذها .

وأن يعمل علي توثيق الرابطة بأهل العلم وحدهم ، لأن في هذا خيراً كثيراً ، ولكن بما أن هؤلاء لا يجدون في كل مكان .

حيث يريد المتوحد . فواجبه أن يعيش بعيداً عن الناس جميعاً . مـــا كـــان ذلك في وسعه حتى لا يشغل نفسه بهم وبهذا يستطيع التوفر علي ما يأخذ به نفسه . من تكميل نفسه حتى يضئ لغيره الطريق .

والسعادة الحقة . لا تكون إلا بإدراك العقل لذاته . أي عندما يدرك العقل أنه نشاط فعال ، وفي هذه الحالة يدرك الإنسان ذاته خارج نطاق الزمن ، فيعلم أنه يتكون من جزئين .

أحدهما : ينشأ في الزمن ويندثر فيه ، وهو الجسم .

والثاني : شئ خالد وأزلي ، وهو العقل ، الذي يدرك نفسه بنفسه ، فينخرط عندئذ في سلك الأزل ، فيصبح العقل والمعقول شيئاً واحداً وتلك الفكرة والتدرج والغاية نجد لها عناصر ، عند أرسطو وأفلاطون والفارابي ، . ولكن ابن باجه . ترقى بها في ابتكار يصل به إلي نوع من يصل به إلي نــوع من التصوف العقلي ، وهذا ما يميز ابن باجه عن غيره . [١]

---

[١] انظر في الفلسفة . د / السعيد طه (صـ ٢٣٢) ، وانظر الفلسفة الإسلامية في المغرب : د / محمد غلاب (صـ ٢٩ – ٣٣) ، وتاريخ الأخلاق محمد يوسف موسى (٢٠٤ – ٢٠٥) .

٥ – ابن طفيل (توفي ٥٨١ هـ) :

أ – أبـو بكـر محمد بن عبد الملك بن طفيل القيسي ، عربي العنصر ، ولد في وادي آسي ، علي مقربة من غرناطة ، ومن المحتمل أنـه درس فـي " اشبيلية " وقرطبة " ، وألف كتابين في الطب . وكان رياضياً وشاعراً ومحباً للحكمة ، والعلم .

شـغل وظيفة : كاتم سر . لحاكم غرناطة ، وكاتـم سر لأول ملـوك الموحدين عبد المؤمن بن عـلي . وهو الذي قدم إليه الفيلسوف ابن رشد .

ولـم يبق من كتبه سوى " أسرار الحكمة المشرقية " ، ورسالة حي بن يقظان " ، التي تستفي فلسفته ومذهبه في الأخلاق منها .

السعادة عنده :

تأثـر ابـن طفـيل بالفلاسفة الذين سبقوه . ولذا فهو يذهب في السعادة مذهبهم ، وأن تخلص النفس من المادة وأدرانها ، والوصول إلي الله – تعالـي– ، وأشراق نوره عليه يصل إلي إدراك الحقائق العليا . التي لا نعرف عنها إلا بعض أمثالها ورموزها .

والطـريق إلـي ذلك ينحصر في أمرين : النظر . والتفكير . والعمـل والتحلـي بالفضـيلة ، وهو يتابع ابـن ماجه في كتابه تدبير المـتوحد ، بأن العقل قادر علي الوصول للكمال التام ، وإن زاد عليه وضوحاً وبياناً للأعمال .

الإنسان عنده :

الإنســـان مركب من جسم وروح ، تحركه ، ونفس ناطقة بها . يدرك العلوم . فالإنسان . مشابه للحيوان ، ومشابه للأجسام السماوية ، ومشابه لواجب الوجود ، وهو الله تعالي :

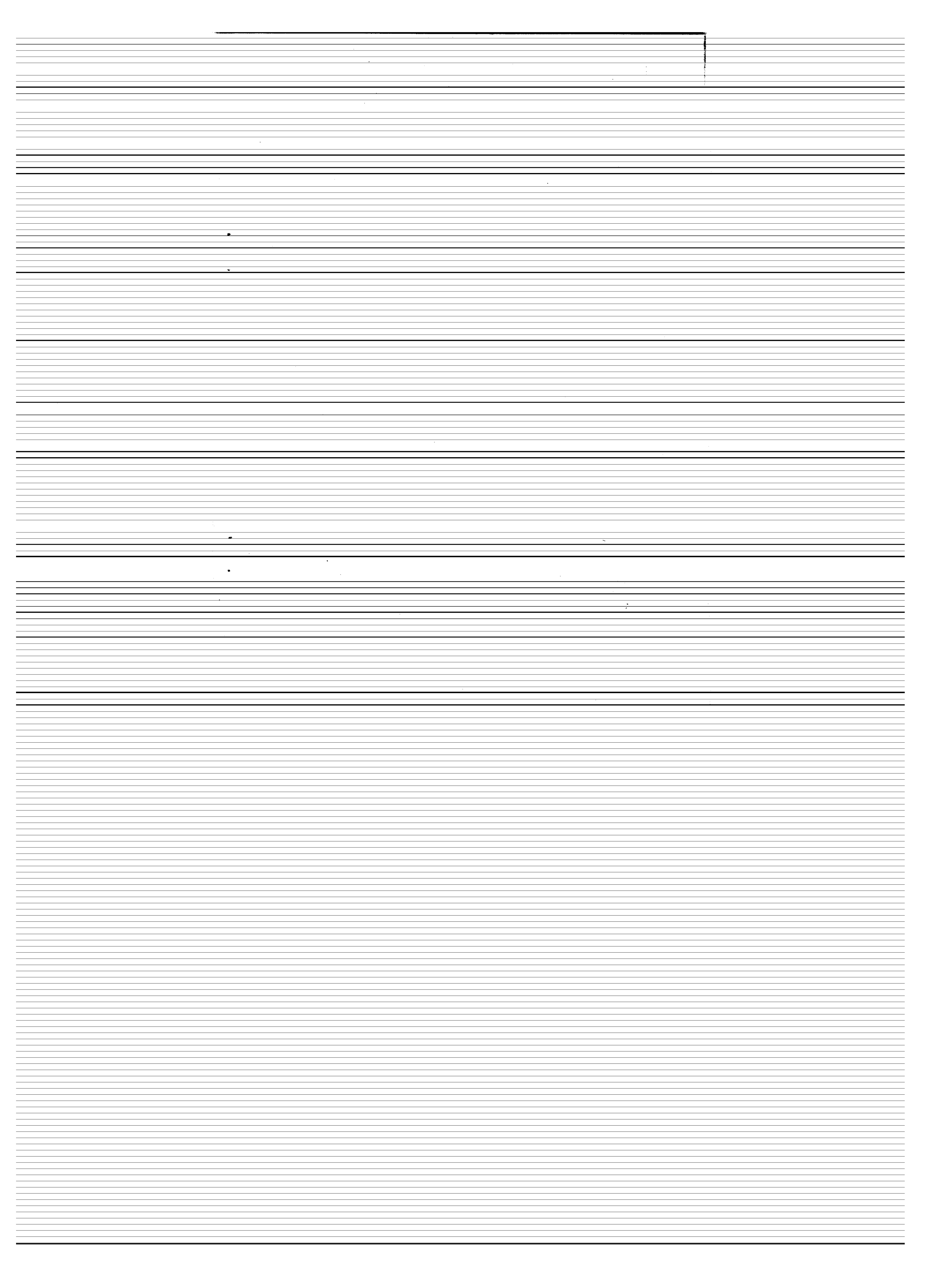
فالجســم يشــبه الحــيوان الــذي يطالبه بما يحفظه من المأكل والمشرب ، فعليه أن يلبي ذلك ويصلح من شأنه .

والــروح تشــبه الأجسام السماوية ، وهــي : أي الروح تحرك الــبدن . وبهــا حيته . أما النفس الناطقة . البريئة من صفات الأجسام والتي بها يعرف الإله خالق الكون كله وبهذه النفس الناطقة . يتشبه .

الإنسان بالموجود خالق الوجود :

وتحصــل للنفس بهذا السعادة العظمي ، وهي دوام المشاهدة لله وأن التشــبيهين الأولين فيهما وسيلتان له ، فيجب أن يكون حظه منهما بقــدر الضرورة ، وإلا كانا من عوائق السعادة لا من وسائلها ، وعلي الإنسان أن يطلب الفناء عن نفسه والإخلاص لمشاهد الحق . حتى يتأتى له مشاهدة الحق العالم الإلهي والجنة والنار . وما لا عين رأت ولا أذن ســمعت ، وتلــك هي السعادة العظمي التي لا تستطيع الطاقة البشرية وصفها ، ويكفي القول :

وكان ما كان مما لست أذكره *** فظن خيرا ولا تسأل عن الخير .



المطلب الأول

الصدق وأثره على الفرد والمجتمع

الصدق فضيلة من أهم الفضائل التي يجب أن يتصف بها المجتمع المؤمن ؛ لكونه من أهم الخلال التي يتوقف عليها صلاح المجتمع . فهو فضيلة لا يستغنى عنها أى مجتمع صاحب كرامة ، والمجتمع الذى يعيش عليه مجتمع فاضل.

وقد عرفه العلماء في اللغة بأنه : ضد الكذب وهو مطابقة الحكم للواقع[١].

وفى اصطلاح العلماء بأنه "الإخبار عن الشيء على ما هو عليه بخلاف الكذب فإنه الإخبار عن الشيء بخلاف ما هو عليه " [٢].

والصدق كفضيلة خلقية لها أثرها الطيب على المجتمع . تحدث العلماء عنها وأفاضوا في الحديث عنها ، وقد ذكر الإمام الغزالى بأنها فضيلة متسعة المعانى ، متعددة الجوانب ، فقال:

واعلم أن لفظ الصدق يستعمل في ستة معان :

١ – صدق في القول
٢ – صدق في النية والإدارة
٣ – صدق في العزم
٤ – صدق في الوفاء بالعزم
٥ – صدق في العمل
٦ – صدق في تحقيق مقاومات الدنيا كلها

---

(١)انظر : القاموس المحيط جـ٢ صـ١١٤٩ ؛ التعريفات للجرجانى صـ١٧٤.

(٢)أدب الدنيا والدين –الماوردى. صـ٢٥٣ تحقيق مصطفى السقا .دار الكتب العلمية ط٤ ١٣٩٨هـ /١٩٧٨م .

ومن خلال هذه الأخلاق يتضح لنا ضرورة الإيمان بالغيب إذ إنه يهيج النفس على التحلى بالفضائل وهجر الرذائل ، كما أنه دعامة أساسية في خلق الإنسان تدفع إلى صلاح المجتمع ونقاء أفراده ، بخلاف الكذب فهو على العكس من الصدق.

وقد عرفه العلماء بأنه عدم مطابقة الخبر للواقع ، وقيل هو إخبار لا ما عليه المخبر[٣].

ولهذا رغب الإسلام في الأول وحذر من الثاني.

قال تعالى : ﴿ يأيها الذين أمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾[٤].

وقال تعالى : ﴿ وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطاناً نصيراً ﴾[٥].

وقال تعالى:﴿ليجزى الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إن الله كان غفوراً رحيماً ﴾[٦].

وفى الحديث الشريف عن ابن مسعود قال : قال رسول الله (إن الصدق يهدى إلى البر وإن البر يهدى إلى الجنة ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ، وإن الكذب يهدى إلى الفجور ، وإن الفجور يهدى إلى النار، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا)[٧].

---

(٣)انظر : إحياء علوم الدين .الغزالى جـ٤ صـ٤٠٩؛ انظر : التعريفات للجرجانى صـ٢٣٥.

(٤)سورة التوبة الآية ١١٩.

(٥)سورة الإسراء الآية ٨٠ .

(٦)سورة الأحزاب الآية ٢٤

(٧)الحديث أخرجه البخارى ك الأدب باب قول الله تعالى " يأيها الذين أمنوا أتقوا الله وكونوا مع الصادقين " م٤ جـ٨ صـ٣٥١ (ح)(٩٧٢).

وفى جانب الكذب يقول تعالى ﴿ إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بالله... ﴾ [٨].

والمعنى : إنما يليق افتراء الكذب بمن لا يؤمن بوجود إله يحاسبه على ما فعل فهو لا يترقب عقاباً عليه، وأولئك هم الكاذبون، أي هم الذين لا يؤمنون فهم الكاذبون[٩].

وقال تعالى : ﴿ ... ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة... ﴾ [١٠].

إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث الشريفة التي تؤكد على أهمية الصدق وترغب فيه وتحقر من الكذب وتنفر فيه ، فعلى الأول تستقيم الأخلاق ، وتتقدم المجتمعات ويسعد الأفراد ، وعن طريق الثاني تنهار القيم وتغيب الأخلاق النبيلة مما يترتب عليه هلاك المجتمع وفساد أفراده.

أثر الصدق على الفرد والمجتمع

للصدق أثار عديدة تعود بالخير على الفرد والمجتمع منها:

١- أمن المجتمع واستقراره:

الأمن نعمة عظيمة من حرم منها حرم من خير كثير ، والمجتمع المؤمن مجتمع آمن يجمع بين العفة والعدل والصدق وسائر القيم النبيلة التي توجد بوجود الإيمان ، وتنعدم بانعدامه . فالأمن في أي مجتمع إنما " يقاس بدرجة الإيمان في الأفراد ، وكلما ازداد إيمان الأفراد آمن الناس على دمائهم وأموالهم وأعراضهم وكلما خف وزن الإيمان في النفوس اضطرب الناس

---

(٨)سورة النمل الآية ١٠٥.

(٩)انظر : تفسير الكشاف جـ٢ صـ٦٣٥-٦٣٦.

(١٠)سورة الزمر الآية ٦٠.

واستولى عليهم القلق فيما يتعلق بدمائهم وأعراضهم وأموالهم، مهما كانت سيطرة القانون وقوته . فالقوانين لا تمس من الإنسان إلا الشكل الظاهري، أما الإيمان فإنه يسيطر على الكيان الإنساني كله "[١١].

ومن هنا كان الإيمان ضرورة للمجتمع فبه يعدلون ، وعن طريقه يصدقون ، ولأجله يوفون ولا يتحيزون ، بخلاف المجتمع الملحد الكاذب ، فلا يأمن فيه الناس على شيء مما لهم ، وذلك؛ لأن الكذب رأس كل خطيئة ، ومصدر كل رذيلة لهذا لا غرابة في أن نرى أمر الله تعالى لأهل الإيمان أن يكونوا مع الصادقين.

قال تعالى : ﴿ يأيها الذين أمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾ [١٢].

٢- القضاء على حيرة البشر:

إن من أهم الآثار التي تعود على الأفراد والمجتمعات من وراء هذه الفضيلة هو طمأنينة النفس، وهدوء الخاطر، وراحة الضمير، والشعور بالرضا والطمأنينة، وكلها أمور إذا عدمت عدم وراؤها خير كثير، وأصيب الإنسان بالقلق والحيرة، وقد أكد هذا الرسول(ﷺ) بقولة: (دع ما يريبك إلى ما لا يريبك فإن الصدق طمأنينة والكذب ريبة)[١٣].

٣- القضاء على النفاق:

الإيمان أساسه الصدق، والنفاق أساسه الكذب لهذا لا يجتمع إيمان وكذب.

---

(١١)الإسلام والإيمان . د/ عبد الحليم محمود صـــ١٩٥ . دار الكتب الحديثة ط١ .

(١٢)سورة التوبة الآية ١١٩ .

(١٣)الحديث أخرجه :النسائى ك الأشربة باب الحث على ترك الشبهات م٤ جـ٨ صـ٣٢٧-٣٢٨ . من حديث الحسن بن على. دار الجيل بيروت، والحاكم في المستدرك جـ٤ صـ١١٠ ح (٧٠٤٦) وقال هذا حديث صحيح الإسناد على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

قال تعالى ﴿ والذين أمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون ﴾ (١٤)

وفى الحديث الشريف سئل النبي (ﷺ): (أيكون المؤمن جباناً ؟ قال : نعم قيل أيكون المؤمن بخيلاً ؟ قال : نعم ! أيكون المؤمن كاذباً ؟ قال : لا)(١٥) وفى الحديث الشريف (آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أو أؤتمن خان)(١٦).

فالكذب إحدى علامات النفاق، وإذا ما حل النفاق بمجتمع كان ذلك إيذنا بهلاكه، وكل ذلك لظهور علامة الكفر وإمارة النفاق فالمنافقون يزيفون الحقائق، ويقلبون الأمور، فيلبسون كل أمر ما يلائمه تبعا لهواهم، ويقولون خلاف ما يفعلون.

٤- القضاء على ألوان الفساد:

الصدق فضيلة أساسية ضرورية للاجتماع الإنساني ، وبدونه يكون الكذب الذي هو رذيلة محضة لها أخطارها وأثارها.

" فهو ينبئ عن تغلغل الفساد في نفس صاحبها، وعن سلوك ينشئ الشر إنشاء، ويندفع إلى الإثم من غير ضرورة مزعجة أو طبيعة قاهرة "(١٧).

فمن خلال الصدق يكون المجتمع نقيا طاهراً لا خداع فيه، ولا جدال، ولا مراء ولا بغضاء ولا شيء من الأخلاقيات الشاذة والفاسدة وبالجملة أنه بدون الصدق " ما قامت شريعة، ولا استنارت سبيل الهداية، ولا دَوّن علم، ولا أُتقن فن، ولنتصور مجتمعا لا أثر فيه للصدق كيف تكون حياته إنه

---

(١٤)سورة الحديد الآية ١٩

(١٥)الحديث أخرجه البيهقي في شعب الإيمان باب حفظ اللسان عما لا يحتاج جـ٤ ص٢٠٧ ح (٤٨١٢) دار الكتب العلمية بيروت ط١ ١٤١٠هـ تحقيق محمد السعيد.

(١٦)الحديث أخرجه البخارى ك الإيمان باب علامة المنافق م١-جـ١ صـ٨٠ ح (٣٢) من حديث أبي هريرة.

(١٧)خلق المسلم الشيخ. محمد الغزالي صـ٣٦. دار القلم دمشق ط١٣ ١٤١٨هـ/١٩٩٨.

بالطبع لا يمكن أن يكون له حياة حقيقية بإنسان عاقل" [١٨] ويصبح الأمر كما قال بعض المصلحين:

" وانظر فيما إذا فقدت أمة خلة الصدق كيف يتيح الشقاء بها رواحله، وينفذ سوء البحث فيها عوامله، وكيف يفسد نظامها، ويفسد التئامها "[١٩].

٥- مساعدة الأمة على أداء رسالتها:

الصدق فضيلة لا شك في ذلك، ومن أعظم آثاره القويمة أنه يساعد المجتمع على أداء رسالته.

فقد أثبتت التجربة أن نجاح أي مجتمع يعود إلى ما قدمه أبناؤه من أعمال صادقة يقول بعض الباحثين: "ونجاح الأمم في أداء رسالتها تعود إلى جملة ما يقدمه بنوها من أعمال صادقة، فإذا كانت ثروتها من صدق العمل كبيرة، سبقت سبقاً بعيداً، وإلا سقطت في عرض الطريق ، فإن التهريج والخبط والادعاء والهزل لا تغني فتيلاً عن أحد "[٢٠].

وهذا أمر لا خلاف عليه؛ حيث إن الكذب يؤدى إلى قلب الحقائق ، ومشاهدة الأمور على غير ما هي عليه، مما يترتب عليه إعاقة المجتمع عن أداء رسالته " فالكاذب يرى البعيد قريباً ، والقريب بعيداً، ويظهر النافع في صورة الضار، والضار في صورة النافع ، فهو رسول الجهالة، وباعث الغواية، وظهير الشقاء، ونصير البلاء، فعلى ما تقدم تكون صفة الصدق ركنا ركنيا

---

(١٨)تاريخ النظريات الأخلاقية أ. أبو بكر ذكرى صـ٩٣ دار الفكر العربى ط٤ ١٣٨٤هـ ١٩٦٥م.

(١٩)الرد على الدهريين .الشيخ جمال الأفغانى صـ٦٣.

(٢٠)خلق المسلم . للشيخ الغزالى صـ٤٤ ، انظر: من كنوز السنة .الشيخ محمد الغزالى صـ١٣٢-١٣٤- مكتبة نهضة مصر طبعة خاصة بمناسبة مهرجان القراءة للجميع. ١٩٩٢.

للوجود الإنساني ، وعماداً للبقاء الشخصي، والنوعي وموصل العلائق الاجتماعية بين أحد الشعوب، ولا تتحقق ألفة مدنية أو منزلية بدونه "[٢١].

وقصارى القول: إن الصدق عامل أساسي عن طريق تستطيع الأمم أداء مهامها ، لهذا كان لا بد من التحلي به فأثره عظيم، وفضله كبير، بخلاف الكذب فهو سبيل للتردد والاضطراب ،وباعث على الفساد ، وعائق بين الأمم وبين رسائلها.

إن الصدق من أهم الأسس التي تبنى عليها المجتمعات، ولولاه ما بقى مجتمع موجود وهذا ما أكدته التجارب. فقد كان الكذب سبباً لهلاك أمم كثيرة سلكت طريقه وحرمت ما أحل الله ، وأحلت ما حرم الله وقد ساق القرآن أمثلة متعددة لهذه المجتمعات .

قال الله تعالى ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الأخر ولا تعثوا في الأرض مفسدين ، فكذبوه فأخذهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾[٢٢].

---

(٢١)الرد على الدهريين. جمال الأفغاني صـــ٦٣ .

(٢٢)سورة العنكبوت الآيتان ٣٦/٣٧.

هذه هي بعض الآثار التي تعود على الفرد والمجتمع من جراء التخلق بهذا الخلق العظيم، مما يؤكد ضرورة التمسك به خصوصاً وأنه دافع لعزة الفرد ، وسيادة المجتمع، وهناك جملة أخرى من الآثار[٢٣] يمكن الوقوف عليها من خلال تدبر آي القرآن الكريم، وسنة الرسول(ﷺ) ، هذا بالإضافة إلى واقع الناس أنفسهم وتجارب الأمم الماضية، والتي تأكد من خلالها أهمية وضرورته للإنسان لاسيما وأنه خاصة من خواصه وعليها مدار المجتمع البشري في جميع حركاته .

المطلب الثاني

العدل وأثره على الفرد والمجتمع

من المعلوم أن الإيمان إذا استقر في مجتمع ما استقر من ورائه فضائل كثيرة ، وخلال وفيرة عن طريقها يسعد الأفراد ، ويبقى المجتمع موجوداً قوياً متمسكاً، وإذا غاب الحق عن مجتمع ما من المجتمعات أدى ذلك إلى هلاكه وتمزق جماعاته فأي مجتمع لا يقوم إلا عن طريق " رجال يلون ضروباً من الأعمال، فمنهم حراس على حدود المملكة يحمونها عن عدوان الأجانب عليها،ويدافعون الوالج في ثغورها، وحفظة في داخل البلاد يأخذون على أيدي السفهاء ممن يهتك ستر الحياء ويميل إلى الاعتداء من فتك أو سلب، أو نحوهما، ومنهم حملة الشرع وعرفاء القانون، يجلسون على منصات

(٢٣)انظر:موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم (ﷺ) إعداد مجموعة من العلماء بإشراف . صالح بن الله، عبد الرحمن بن محمد جـ٦ صـ٢٥١٦ دار الوسيلة للنشر والتوزيع ط٢ ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م، انظر :الكذابون وموقف القرآن الكريم منهم. د. محمود القراشي. بحث منشور بحولية كلية أصول الدين بالمنصورة العدد ٣ صـ١٥٠-١٥١ . دار الإسلام للطباعة ١٤١٧هـ-١٩٩٧.

الأحكام لفصل الخصومات والحكم في المنازعات، ومنهم أهل جباية الأموال، يحصلون من الرعايا ما فرضت عليهم الحكومة من خراج مع مراعاة قانونها في ذلك ، ثم يستحفظون ما يحصلون في خزائن المملكة، وهي خزائن الرعايا في الحقيقة، وإن كانت مفاتيحها بأيدى خزنتها، ومنهم من يتولى صرف هذه الأموال في المنافع العامة للرعية مع مراعاة الاقتصاد والحكمة ، كإنشاء المدارس والمكاتب وتمهيد الطرق وبناء القناطر ، وإقامة الجسور، وإعداد المستشفيات ويؤدى أرزاق سائر العاملين، في شئون الحكومة من الحراس والحفظة وقضاة العدل، وغيرهم حسبما عين لهم" [٢٤].

فهذه الطبقات لو لم تؤد عملها بطريق العدل ترتب على ذلك سقوط المجتمع وانهيار أفراده.

وفى الصفحات التالية أعرض للعدل من حيث تعريفه وأثاره العظيمة لتتكشف الصورة عن قبيح الظلم، وشناعته وعقوبة فاعله. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى ليتضح أهمية العدل حيث إنه من القواعد التي بدونها لا تقوم لمجتمع متحضر قائمة والتي بدونها تنهار القيم.

فالعدل فضيلة من أمهات الفضائل اللازمة للفرد والمجتمع لكونه فضيلة فردية واجتماعية معا إنها فردية من حيث إنها تدل على مزاج ذاتى خاص عند الإنسان العادل، واجتماعية من حيث أنها ترعى حقوق الغير، وتفترض بالضرورة تعدد الأشخاص "[٢٥].

---

(٢٤)الرد على الدهريين .جمال الدين الأفغانى صـــ٦٠.

(٢٥)الأخلاق النظرية .د. عبد الرحمن بدوى صـــ١٦٥. الناشر وكالة المطبوعات بالكويت ١٩٧٥ .

ولهذا يقول أرسطو : إن العدالة تهتم بالمجتمع المدنى ولذا فهى فضيلة بالنسبة للغير، وليست فضيلة مطلقة[٢٦].

وقد عرفه العلماء في اللغة بأنه: " ضد الجوار، وما قام في النفوس أنه مسقيم " [٢٧].

وفى الاصطلاح هو" فضيلة للنفس تحدث من اجتماع الفضائل الثلاثة الحكمة والعفة والشجاعة- وذلك عند مسالمة هذه القوى بعضها للبعض، واستسلامها للقوة المميزة حتى لا تتغالب ولا تتحرك لنحو مطلوباتها على سوم طبائعها، ويحدث للإنسان بها سمة يختار بها أبداً الإنصاف من نفسه على نفسه أولاً ثم الإنصاف والانتصاف من غيره له"[٢٨].

فهو هدف نبيل تتوق إليه الشعوب للأثر المترتب عليه ، وقد أمر الله به وحبب فيه ودعا إليهم في كثير من آيات القرآن.

قال تعالى ﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل..... ﴾[٢٩].

وقال تعالى ﴿ يأيها الذين أمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنأن قوم على ألا تعدلوا أعدلوا هو أقرب للتقوى . ﴾ [٣٠].

وقال تعالى ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان... ﴾[٣١].

---

(٢٦)نفس المصدر صـ١٦٥.

(٢٧)القاموس المحيط للفيروز أبادى جـ٢ صـ١٣٦١.

(٢٨)تهذيب الأخلاق .ابن مسكويه صـ٢٧ .

(٢٩)سورة النساء الآية ٥٨.

(٣٠)سورة المائدة الآية ٨ .

(٣١)سورة النحل الآية ١٧٦.

إلى غير ذلك من الآيات التي توضح أن العدل المراد عدل شامل يشمل كل نواحي الحياة، ويمكن للمرء الوقوف على مكانة العدل من خلال النظر إلى ما يقابله وهو الظلم .فهو داء خطير ، وخلق ذميم ، بسببه تنهار الأخلاق، وتضيع الحدود وترتكب المعاصي، وتغتصب الحقوق ، وتمّلك المجتمعات وتختفي الفضائل والخيرات وهذه الأمور كلها يؤكدها تعريف العلماء للظلم .

فقد عرف بأنه. وضع الشيء في غير موضعه ... وقيل هو التعدى من الحق إلى الباطل وهو الجور.

ولأهمية العدل وخطورة الظلم نجد أن الإسلام حبب في الأول وندد بالثانى مبيناً سوء فاعله وشدة عذابه يوم القيامة.

قال تعالى ﴿ ولا تحسين الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار مهطعين مقنعى رءوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء ﴾ [٣٢].

وقال تعالى ﴿ ... لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين ﴾ [٣٣].

وفى الحديث الشريف:

(إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن عز وجل ، وكلتا يديه يمين الذين يعدلون في حكمهم وأهاليهم وما ولو)[٣٤].

---

(٣٢)سورة إبراهيم الآيتان ٤٢-٤٣ .

(٣٣)سورة مريم الآية ٣٨

(٣٤)الحديث أخرجه الإمام مسلم في صحيحه كتاب الإمارة باب فضيلة الإمام العدل وعقوبة الجائر م٦ جـ١٢ صـ٢٠٣ ح(١٨٢٧) .

وفى حديث أخر:

(سبعة يظلهم الله تحت ظله يوم لا ظل إلا ظله إمام عادل...)[٣٥].

إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث التي تحث على العدل وتوضح فضل فاعله ، وتقبح الظلم وتبين عقوبة فاعله.

أثر العدل على الفرد والمجتمع:

للعدل آثار كثيرة يمكن الوقوف على أهمها من خلال ما يلي :-

أ-القضاء على المذاهب الهدامة:

فمن المعلوم أن أوربا قد عانت خلال العصور الوسطى من طغيان رجال الكنيسة الأمر الذي ألب القلوب عليها والقيام بحملات نقد شديدة لها نتيجة للظلم الواقع على الناس من القائمين على أمرها ، وكل ذلك تحت دعوى الدين. فقد مارست الكنيسة الظلم في أبشع صورة ، واستطاعت بطغيانها فرض عقيدة التثليث، تلك العقيدة الباطلة التي تتصادم مع المنقول والمعقول، وقد لعنت مخالفيها ، والأعجب من ذلك أنها سفكت دماء المخالفين لها من الموحدين، بل وأعطت نفسها حقوقاً خاصة بالله وحده، وذلك مثل حق الغفران الذي عرف فيما بعد بمهزلة صكوك الغفران، وأوقفت تفسير الكتاب المقدس على نفسها وعملت على ضرورة أخذ الناس بكل ما تقول به واستعملت في ذلك كل الوسائل الممكنة وغير الممكنة، مما نتج عنه ظهور دعوات هدامة، وتيارات مادية فكان من أولى تلك المذاهب

---

(٣٥)الحديث أخرجه البخارى ك الزكاة باب الصدقة باليمين م١/جـ٢ صـ٦٠٣ ح(١٣٢٠). مسلم ك الزكاة باب فضل إخفاء الصدقة م٤جـ٧ صـ١٢٣-١٢٤- ح ١٠٣١.

العلمانية التي تهدف إلى فصل الدين عن الدولة، وقد ظهر هذا التيار نتيجة للشعور بالظلم والطغيان من قبل رجال الدين .

ثم تبعها دعوات أخرى وذلك كالشيوعية التي لم تظهر ولم يكتب لها النجاح إلا حيث كان الظلم ظلمات وإرهاقاً لا يطاق ، وكذا الإباحية المدمرة التي لم تظهر إلا مع الظلم وغياب الدين(٣٦).

فالمجتمعات المؤمنة بوجود إله خالق للناس، وعالم أخر يجازى فيه المرء على ما قدم لا يقدم أفرادها على ظلم، ولا يقترف فيها أحد حق أحد، من هنا يتأكد لنا أهمية الإيمان بالغيب وضرورته في الناحية الخلقية.

ب–انتشار الألفة والمودة بين أفراد المجتمع:

من أهم الآثار التي تعود على الفرد والمجتمع من وراء الالتزام بفضيلة العدل انتشار الألفة والمودة بين الأفراد والجماعات لأن ذلك لازم عن العدل " فبالعدل والمساواة تشيع المحبة بين الناس، وتأتلف نياتهم"(٣٧).

إن مما يدعو إلى التحلى بهذا الخلق النبيل أنه يعمل على إشاعة المودة بين الناس، ويقوى أواصر المحبة بينهم مما يعنى تعاون الأفراد ، على حين أن الظلم ظلمات يورث الحقد والكره فنراه "يوغر صدر الابن على أبيه، والبنت على أمها ، والرعية على راعيها، فتدب عقارب الفساد وتسعى عوامل الخراب في تدمير كل ما تبنيه يد الأمن والعدالة "(٣٨).

---

(٣٦)انظر :تاريخ النظريات الأخلاقية أ– أبو بكر ذكرى صـــ٨٦.

(٣٧)الهوامل والشوامل. لأبي حيان التوحيدى ومسكويه صـــ٨٤ نشره أحمد أمين ، السيد أحمد صقر. الهيئة العامة لقصور الثقافة. سلسلة الذخائر العدد٦٨.

(٣٨)تاريخ النظريات الأخلاقية .أ. أبو بكر ذكرى صـــ٨٦.

ويؤكد ذلك أن الله تعالى قد قرن العدل بالإحسان فقال تعالى:

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان....... ﴾ (٣٩).

فالعدل خلق قويم إذا ضم إليه الإحسان كانت الثمرة أعظم ، والفائدة أعم فالغرض من العدل إعطاء كل ذي حق حقه ووضع كل شيء في موضعه ، أما الإحسان يلقى بالرحمة والمودة على كل جوانب المجتمع وعلى جميع أفراده فيعم الخير وتزداد أواصر المودة والمحبة بين الناس.

ولهذا يقول " ابن مسعود " إن هذه الآية أجمع أية لخير أو شر (٤٠).

وقد يكون السبب في ذلك " أن الإحسان ليس علماً عادياً، ولا عملاً عادياً إنما هو الشاؤ البعيد الذى تبلغ الأشياء فيه تمامها ، وتزهى فيه بجودها وبنقائها ، والمسلم مخاطب بنشدان هذه المترلة في كل ما يمس من عمل ، العادات والعبادات في ذوقه وفقهه سواء ، إذ العادات بمجرد اقترالها بنيه الخير تتحول إلى عبادات "(٤١).

وهكذا تتحقق المودة والألفة وتعم الرحمة والإخاء بين الأفراد والجماعات عن طريق العدل ، والواقع يشهد بذلك فبين المجتمعات المؤمنة تنتشر كل معاني الخير إلا ما شذ عنها وبين المجتمعات الملحدة وتنتشر الرذائل والمعانى الخبيثة وكل صفوف الشر إلا ما شذ عنها.

جـــ- أساس بقاء المجتمع:

فالعدل هو سبب سيادة الأمة وأساس بقائها. "فهو للحياة الاجتماعية

---

(٣٩)سورة النحل الآية ٩٠ .

(٤٠)تفسير الرازى مجلد ١٠ جـــ٢٠ صـــ١٠٣-١٠٤.

(٤١)الجانب العاطفى في الإسلام . الشيخ محمد الغزالى صـــ٧٦ . دار الدعوة و للطباعة والنشر ١٤١٠ هـــ/١٩٩١م .

كأنفاس الحياة للكائنات الحية، وهو لنهضات الشعوب كالماء العذب في سقى الزرع "[٤٢].

فعن طريقه " تعمر البلاد وتنمو به الأموال ، ويكثر معه النسل ويأمن به السلطان ....وليس أسرع من خراب الأرض ولا أفسد لضمائر الخلق من الجور لأنه ليس يقف على حد، ولا ينتهي إلى غاية ولكل جزء منه قسط من الفساد حتى يستكمل "[٤٣].

والمتامل في قصص السابقين يجد أن ما من أمة جارت ، أو فرد طغى وظلم إلا كان ذلك سبباً لهلاكه والقضاء عليه.

قال تعالى: ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾ [٤٤].

والمعنى الذي تريده الآية هو "تحذير من وخامة عاقبة الظلم لكل أهل قرية ظالمة من كفار مكة وغيرها ، بل لكل من ظلم غيره أو نفسه بذنب يقترفه ، فعلى كل من أذنب أن يحذر أخذ ربه الأليم الشديد ، فيبادر بالتوبة ، ولا يغتر بالإهمال فالمجتمع الظالم هالك لا محالة[٤٥].

وقال تعالى في حق "فرعون" عندما طغى وتجبر وتكبر وادعى الألوهية فكان عقابه ﴿ فأخذه الله نكال الآخرة والأولى إن في ذلك لعبرة لمن يخشى ﴾ [٤٦].

---

(٤٢)نفحات القرآن الكريم . الشيخ عبد اللطيف السبكى صـ٢٧٢ . الهيئة المصرية العامة للكتاب مهرجان القراءة للجميع صيف ٢٠٠٢.

(٤٣)أدب الدنيا والدين .للماوردى صـ١٤١ .

(٤٤)سورة هود الآية ١٠٢

(٤٥)تفسير الكشاف .جـ٢ صـ٤٢٧ عند تفسيره للآية ١٠٢ من سورة هود.

(٤٦)سورة النازعات الآيتان ٢٥-٢٦.

والمعنى : "نكل الله به في الآخرة والأولى والنكال بمعنى التنكيل ... يعنى الإغراق في الأولى ، والإحراق في الآخرة "[٤٧].

وقال تعالى﴿ فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا..... ﴾ [٤٨].

وفى الحديث الشريف : (ثلاث منجيات وثلاث مهلكات ، فأما المنجيات فالعدل في الغضب والرضا ، وخشية الله في السر والعلن، والقصد في الغنى والفقر، وأما المهلكات فشح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه)[٤٩].

فالعدل قاعدة مهمة لبقاء المجتمع، فلا انتظام إلا به، ولا نجاة لأفراده إلا من خلاله ولا مكان للفقراء إلا عن طريقه ولا حفظ لأموال الأغنياء إلا بمبادئه فلست " تجد فساداً إلا وسببه نتيجة الخروج فيه عن حال العدل إلى ما ليس بعدل..... فإذن لا شيء أنفع من العدل ، كما أنه لا شيء أضره ما ليس بعدل " [٥٠].

د-انتظام العلاقة بين الأفراد:

المجتمع العادل مجتمع منظم فيه تنتظم العلاقة بين أفراده كل يعرف ما له من حقوق وما عليه من واجبات فلا ميل لأحد فيه إلا للحق، لأن من أعدى أعداء العدل التحيز وهو ميل الإنسان لأحد المتساويين ميلا يجعله يعطيه أكثر من حقه ، وينقص الأخر حقه[٥١].

---

(٤٧) تفسير الكشاف جـ٤ صـ ٦٩٦ عند تفسيره للآيتين ٢٥-٢٦ من سورة النازعات.

(٤٨)سورة النحل الآية ٥٢.

(٤٩)الحديث أخرجه البيهقى في شعب الإيمان جـ٥ صـ٤٥٢ (ح) ٧٢٥٢ عن أبي هريرة وله شاهد عن ابن عمر وأخرجه الطبراني في الأوسط جـ٦ صـ٤٧ (ح) (٥٧٥٤).

(٥٠)أدب الدنيا والدين صـ١٤٤.

(٥١)كتاب الأخلاق . أحمد أمين صـ٢٦١ .مطبعة لجنة التأليف والترجمة ط٥ ١٩٤٨ .

مما ينتج عنه اختلال العلاقة بين الأفراد وعدم انتظامها وهذا خلاف ما عليه أفراد المجتمع المؤمن العادل. إن مبدأ العدالة يعمل على تنظيم العلاقة من خلال رفضه للتحيز ونبذه له، فالمجتمع المؤمن يسود العدل في كل شيء فيه ويعمل على تحقيق المساواة بين الناس، وعدم التمييز بينهم لأي سبب من الأسباب.

فالمجتمع المؤمن مجتمع عادل يطبق مبدأ الأخوة فكراً وسلوكاً مما يترتب عليه انتظام العلاقة بين أفراده، ولا يمكن أن يتم هذا إلا بالبعد عن الظلم، لهذا نجد الإسلام يسد الباب أمام أى انحراف ففى الحديث الشريف عن الرسول (ﷺ) أنه قال : (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ...)(٥٢).

وقصارى القول إن مثل هذه المعاني لا تتم إلا من خلال العدالة وتطبيقها وأعنى بالعدالة هنا. المنزلة من عند الله تعالى من خلال شرائعه، فهو يعلم ما يصلح الإنسان، وما لا يصلحه حيث إن العدل كمبدأ لا يمكن أن يتحقق من خلال القوانين البشرية التي قام بوضعها بعض المصلحين أو المفكرين، فلم نسمع عن مجتمع تحققت فيها العدالة من خلالها، بخلاف القوانين الإلهية، فهى كفيلة بتحقيق كل خير، وإرساء كل حق، وتنظيم العلاقة بين الأفراد والجماعات وبالجملة فعن طريق العدل " تشيع المحبة بين الناس وتأتلف نياتهم ، وتعمر مدنهم، وتتم معاملتهم، وتقوم سننهم "(٥٣).

وكل هذا دليل على انتظام العلاقة بينهم.

هـــ-تحقيق المساواة التامة بالمعنى الصحيح:

---

(٥٢)الحديث أخرجه : البخارى ك المظالم والغضب باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه م٢ جـ٣ صـ٢٦٧ ح (٦٦١)، مسلم ك البر والصلة باب تحريم الظلم م٨ جـ١٦ صـ١٣٧ ح (٢٥٨٠) .

(٥٣)الهوامل والشوامل. لأبي حيان التوحيدى ومسكويه. صـ٨٤ .

قال تعالى : ﴿ يأيها الناس إن خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ... ﴾(٥٤).

قال تعالى ﴿ فلينظر الإنسان مما خلق خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب ﴾(٥٥).

فالمتأمل في هذه النصوص يجد أنها تشير إلى أمر مهم وهو وحدة الأصل، هذه النظرية السهلة الميسرة في حقيقة النشأة الأولى أثرت الحياة بالإخاء والتواضع والعمل الصالح والعدل والصدق ونبذ الظلم والنفاق ، ولم تترك باباً لمن ارتكبوا كثيراً من الحماقات وظلموا الناس بزعم أنهم أبناء الله أو من نسل خاص أو شعب مختار إلا وصدته، وتركت باب السبق في الخيرات ميداناً فسيحاً يتنافس فيه المتنافسون، وأقرت بذلك مبدأ التفاوت في المواهب والقدرات، مما ترتب عليه التمايز في العلم والأرزاق والمناصب والدرجات وهذا المبدأ من أصلح النظم التي تستقيم عليها حياة الفرد والجماعة. فالحياة تفتقر إلى المزايا قال تعالى ﴿ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض..... ﴾ (٥٦).

وقال تعالى ﴿ والله فضل بعضكم على بعض في الرزق... ﴾ (٥٧).

وقال تعالى:.﴿ قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون... ﴾ (٥٨).

إن المجتمعات المؤمنة بالغيب.تتحقق فيها المساواة التامة بالمعنى الصحيح، دون أن تمنع من التفاوت في المواهب والقدرات والدرجات

---

(٥٤)سورة الحجرات الآية ١٩.

(٥٥)سورة الطارق الآيات ٥-٧.

(٥٦)سورة البقرة الآية ٢٥٣ .

(٥٧)سورة النحل الآية ٧١.

(٥٨)سورة الزمر الآية ٩.

لتستقيم الحياة فهذه المجتمعات هى التي " تسمح للكفاءات والمزايا الخلقية بالمجال الذي يناسبها في الحياة العامة، ولكنه لا يسمح لها بأن تحرم أحداً حقه ، أو تقف بينه وبين مجاله الذى استعد له بما هو أهله ولو لم يولد فيه، ولم يكن منه بالنسب والوراثة " (٥٩).

فالمجتمع لا يمنع من التفاوت بين الناس، فذلك ضرورة اقتصها طبيعة الحياة ، لهذا لا عجب أن نرى الله تعالى يقول ﴿ .... ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبوراً ﴾(٦٠).

من خلال ما سبق يتضح لنا أن العدل يترتب عليه تحقيق مبدأ المساواة التامة بالمعنى الصحيح، هذه المساواة التي عن طريقها تتحقق جملة من الأمور من أهمها:

١-الاستقرار والطمأنينة في المجتمع وذلك لما يشعر به كل فرد أنه ليس أقل من غيره.

٢-القضاء على الفتنة الطائفية نظراً لشعور الذميين بأن لهم حق المواطنة على قدم المساواة مع المسلمين.

٣-طمأنينة كل فرد إلى عدالة الحكم؛ لأن من طبيعة الحاكم العادل أن لا يفرق بين الناس تبعا لأعراقهم أو نسبهم أو وضعهم(٦١).

٤-النظر إلى الفوارق والتفاوت بين الناس في الدرجات والطبقات نظرة مستقيمة يفهم منها ضرورة هذا التفاوت لتستقيم حياة الناس حيث إن " العالم بخير ما دامت فيه أنواع الكفايات وفوارق المزايا والصفات وما

---

(٥٩)حقائق الإسلام .للعقاد .صـ١٥٠ .

(٦٠)سورة الإسراء الآية ٥٥.

(٦١)انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم جـ٧ صـ٢٨١٨ .

دامت هذه الأنواع والفوارق فيه يتمم بعضها بعضاً ويجرى بعضها على معونة بعض، والعالم على شر ما يكون إذا أزال فيه كل خلاف بزوال الأداة المختلف فيها"[٦٢].

وصدق الله تعالى حيث يقول: ﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين ﴾[٦٣].

وقصارى القول : أن العدل كالقوة الجاذبة التي عن طريقها تعم المودة، وتنتشر الرحمة، فتتآخى به النفوس، وتشتد به العلائق، وتنصلح به أحوال المجتمعات، ويسير على هداه الجماعات.

فالعدل فضيلة تقوم المعوج وترد الباغى، وترهب الجائر، وتسمح للحياة أن تستمر، أما الظلم فهو من الظلام،وكلاهما نذير سوء، وبشرى طغيان فهو رذيلة بغيضة بها يفقد المجتمع وحدته، وينبيء عن خطر عظيم، فتكثر المحرمات، وتظهر السلوكيات الشاذة والأخلاقيات الفاسدة فضلاً عن هذا يشعر صاحبه بوحشة ويعيش شارد الخاطر قلق النفس، فهو آفة من آفات المجتمع. تقف عقبة في تقدمه وازدهاره ويؤدى الأمر في النهاية إلى فتنة في الأغلب تحيط بصاحبها.

---

(٦٢)حقائق الإسلام .عباس العقاد صـ١٥٧ .

(٦٣)سورة هود الآية (١١٨)

المطلب الثالث

العفة وأثرها على الفرد والمجتمع

العفة كفضيلة خلقية لها أثرها الطيب على الفرد والمجتمع فهي متسعة المعاني ، متعددة الجوانب وليست كما يظن بعض الناس أن العفة تعني هجر الفاحشة والواقع أن هذا فهم قاصر ويؤكد ذلك تعريف العلماء لها.

فقد عرفها العلماء بأنها: " صرف الشهوات على وفق الرأي الصحيح فيكون صاحبها خيراً غير خاضع لها، وهي ناشئة عن اعتدال القوى الشهوانية بين الإنسان وغيره من أنواع الحيوان"(٦٤).

ومعنى هذا أن: العفة فضيلة يتخلق بها الفرد ويسير بها إلى الطريق السوى غير منقاد لطريق الأهواء والشهوات.

الجوانب التي تشملها العفة:

١-الأنفة في طلب الطعام والمال مع شدة الفقر:

قال تعالى: ﴿ للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافاً ...﴾ (٦٥).

فهذه الآية توضح جانباً من جوانب العفة أعني أنها تشير إلى سمة أهل التعفف الذين اقتدوا برسول الله (ﷺ) في الأنفة في طلب الطعام من أحد مع أنهم أحوج ما يكونون إليه، حتى أنهم بتعففهم هذا كان الجاهل بحالهم يظنهم

---

(٦٤)كتاب الفلسفة العربية والأخلاقية. هو ملخص المحاضرات التي ألقاها سلطان بك محمد بالجامعة المصرية جـ ٢ صـ ٨. مطابع المعارف بشارع مصر بالفجالة.

(٦٥)سورة البقرة الآية ٢٧٣.

أغنياء فقد كانوا " مستغنين من أجل تعففهم عن المسألة تعرفهم من صفرة الوجه ورثاثة الحال "[٦٦].

٢-نزاهة النفس وأمانة اليد:

قال تعالى : ﴿ وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن أنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا ومن كان غنياً فليستعفف... ﴾ [٦٧].

والمعنى : أي اختبروا عقولهم وذوقوا أحوالهم ومعرفتهم بالتصرف قبل البلوغ، حتى إذا تبنتم منهم رشداً دفعتم إليهم من غير تأخير عن حد البلوغ، ولا تأكلوا أموالهم مسرفين ومبادرين كبرهم، والأوصياء نوعان:

نوع غنى، ونوع فقير، و على كل منها أن يستعف فالغنى لا يطمع ويقتنع بما رزقه الله من الغنى إشفاقاً على اليتيم وإبقاء على ماله، والفقير يأكل قوتاً مقدراً بالعدل والأمانة [٦٨].

فالعفة هنا تعنى أمانة اليد ونزاهة النفس لأن العفيف يمنع نفسه عما لا يحل له كما أنه لا يمد يده على ما ليس من حقه، أو من حقه لكنه يستعفف.

٣ـــ حفظ الفروج عن الحرام :

قال تعالى ﴿ وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله... ﴾ [٦٩]

---

(٦٦)تفسير الكشاف جـــ١ صـــ٣١٨.

(٦٧)سورة النساء الآية ٦.

(٦٨)أنظر: تفسير الكشاف جـ صـــ٢٧٢-٢٧٤ .

(٦٩)سورة النور الآية.٣٣.

فهذه الآية اشتملت على أمر بالاجتهاد في طلب العفة، وتحرى مواضعها والحرص عليها للعاجزين عن الزواج بسبب الفقر وقلة الحاجة .

والمعنى: ليجتهد كل إنسان في العفة، ومنع النفس عن الحرام، كأن المستعف طالب من نفسه العفاف وحاملها عليه [٧٠].

هذه بعض المعانى التي تؤكد على أن العفة متسعة المعاني، مما يؤكد أهميتها كفضيلة خلقية تعود بالخير على الفرد والمجتمع.

فالإنسان لا يكون عفيفاً " تام العفة حتى يكون عفيف اليد واللسان والسمع والبصر فمن عدمها في اللسان السخرية والتجسس والغيبة والهمز والنميمة والتنابز بالألقاب، ومن عدمها في البصر مد العين إلى المحارم وزينة الحياة الدنيا المولدة للشهوات الرديئة، ومن عدمها في السمع الإصغاء إلى الممنوعات القبيحة وعماد عفة الجوارح كلها أن لا يطلقها صاحبها في شيء مما يختص بكل واحد منها إلا فيما يسوغه العقل والشرع دون الشهوة والهوى "[٧١].

أثر العفة على الفرد والمجتمع :

أ-النجاة من الفواحش

من أولى الآثار التي تعود على الأفراد والمجتمعات من وراء تخلقهم بهذه الفضيلة هو حفظه من الوقوع في الفواحش، لا سيما وأن للشهوة تأثيرها على النفوس فهى كما يقول بعض العلماء " خادعة العقول، وغادرة الألباب، ومحسنة القبائح، ومسولة الفضائح وليس عطب إلا وهى له سبب

---

(٧٠)أنظر :تفسير الكشاف جـ٣ صـ٢٣٧-٢٣٨، وتفسير الرازى م١٢ جـ٢٣ صـ٢١٦ .

(٧١)موسوعة -نضرة النعيم جـ٧ صـ٢٨٧٤.

وعليه ألب "[٧٢].

فالعفة نعمة عظيمة فمن تخلق بها هانت علية لذائذ الدنيا كلها، فالعفيف لا يستعف عن فعل الفاحشة فحسب بل إنه يتعفف عن مقدماتها وأسبابها.

وذلك امتثالاً لقولة تعالى ﴿ ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلاً﴾ [٧٣].

فالنظرات والملامسة والمحادثة كلها أمور تؤدى إلى الوقوع في الفاحشة خصوصاً في المجتمعات المادية التي تنكرت للدين وأنكرت العالم العينى جملة وتفصيلاً.

فهذه المجتمعات امتلأت بالفواحش والمنكرات ، فالإيمان بوجود عالم أخر غير هذا العالم يجازى فيه المرء على ما قدم يدفعه إلى ضبط سلوكه والحكم على أفعاله بل الإقدام عليها هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى يكون ذلك سبباً لبقاء المجتمع نتيجة لاستقامة أفراده " فهى مقدمة ضرورية لبقاء المجتمع في صفاء علاقاته ، وفى بعدهم عن الحقد ، وعن تدبير السوء بعضهم لبعض "[٧٤].

فالعفة على ما سبق بيانه تقى الإنسان من ارتكاب أى نوع من الفواحش سواء كان عن طريق اليد أو اللسان أو الفرج أو غيرهم ، حيث إنما تهدف إلى إخضاع الشهوات والعمل على ترويضها وتنظيمها.

---

(٧٢)أدب الدنيا والدين الماوردى صـ٣١٠.

(٧٣)سورة الإسراء الآية ٣٢.

(٧٤)القرآن والمجتمع د. محمد البهى صـ١٢٠ نشر مكتبة- وهبة ط٢ ١٤٠٦هـ/١٩٨٦ .

ب- انتشار الخير:

إذا كانت العفة تعمل على هجره المرء للمعصية فإنها أيضاً تساعد على زيادة الخير وانتشاره لأنها فضيلة بها تهون على الإنسان كل لذائذ الحياة ، ومغريات الدنيا. فيصبح مصدر خير لنفسه وأهله ومجتمعه ، فهو يعرف ماله من حقوق ، وما عليه من واجبات، فيرعى حقوق الله كما يرعى حقوق عباده المادية والأدبية؛ فضلاً عن هذا تحمل صاحبها على احترام ما ألفوه وما درجوا عليه من عادات وتقاليد، فالعفة تهدئ من روع الشهوة وتلطفها، وتلقى برعاية التقوى على العقل فينعم العفيف بحياة هنيئة طاهرة وينعم من حوله بالخير[٧٥].

على حين أنه إذا غابت العفة عن مجتمع ما فإن أفراده يتسابقون فيما بينهم لتحقيق رغباتهم وشهواتهم، فلا يمنعهم مانع، ولا يردهم حاجز ، ومن هنا ينشأ صراع مرير وشديد بين أفراده

---

(٧٥)انظر : العفة ومنهج الاستعفاف -يحيى بن سليمان العقيلى صـ٩٨ ط دار الدعوة الكويت. دار الوفاء مصر ط٢ ١٤١٢هـ-١٩٩٢م.


دار التراث
للطباعة
٠٤٧/٣٢٣٤٣٣٠ ☎☎ ٠١٠٩٢٩٢٦٦١